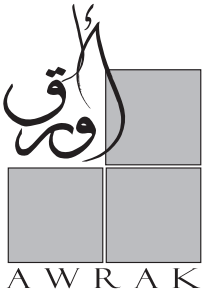
أوراق
AWRAK

العدد رقم (١١)
أوراق
AWRAK
سلسلة تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية

رئيس مجلس الإدارة
إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير
خالد عزب

سكرتارية التحرير
أمنية الجميل
محمد العربي

مدير إدارة النشر
نهى عمر

التدقيق اللغوي
رانيا يونس

الإخراج الفني
أمينة حسين

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر
مكتبة الإسكندرية، إنما تعبِّر عن وجهة نظر مؤلفيها.

الحاجز النفسي
في الصراع العربي الإسرائيلي

شيرين جابر أحمد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء النشر (فان)

أحمد، شيرين جابر.

الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي / تأليف شيرين جابر أحمد. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، 2014.

ص. سم. (أوراق ؛ 11)

تدمك 978–977–452–272–0

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

1. النزاع العربي الإسرائيلي –– جوانب نفسية. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 956.9405 2014705338

ISBN:978–977–452–272–0

رقم الإيداع: 2013/24418

© 2014 مكتبة الإسكندرية

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يُشار إلى أنه تمّ بدعم منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨ الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

قائمة المحتويات

الجوانب النفسية في الصراع العربي الإسرائيلي ٨

الوسائل الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي ٣٥

دور مصادر الثقافة في تشكيل الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي ٥٩

خلاصة الدراسة ٩٤

يعتبر الصراع العربي الإسرائيلي من أكثر الصراعات الممتدة تاريخيًّا التي عرفها العالم المعاصر، وتمتد جذور ومصادر الصراع منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا. ويتميز الصراع العربي الإسرائيلي عن غيره من الصراعات بأنه يشمل مختلف الجوانب الإستراتيجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والنفسية وغيرها، هذا فضلاً عن الاستخدام المكثف من قبل العقيدة الصهيونية للأساطير والمزاعم الدينية المؤسسة على التفسير المحرف واختلاق وقائع دينية من التوراة والتلمود وغيرهما من التفسيرات الدينية المحرفة التي مزجها قادة المشروع الصهيوني مع العقيدة الأيديولوجية العلمانية لهذا المشروع ومقولاتها الرئيسية.

الصراع العربي الإسرائيلي ليس مجرد صدام مسلح بين طرفين، وإنما هو صراع له جذوره التاريخية التي ترجع إلى بدايات القرن الماضي، تداخلت فيه عوامل عديدة جعلته في النهاية واحدًا من أعقد الصراعات الدولية المعاصرة، فيكفي أن هذا الصراع اكتنفته حروب وأزمات، وتفرعت عنه وسائل وقضايا عرضت العالم إلى خطر المواجهة مرات عديدة. وتكمن خطورته في تأثيره على سلام وأمن العالم، وليس منطقة الشرق الأوسط وحدها.

من هذا المنطلق جاءت أهمية هذه الدراسة، ومن ثم تركز الدراسة على تناول عدة موضوعات فرعية تتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي؛ وهي:

الموضوع الأول: الجوانب النفسية في الصراع العربي الإسرائيلي.
الموضوع الثاني: الوسائل الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي.
الموضوع الثالث: دور مصادر الثقافة في صياغة رؤى الصراع العربي الإسرائيلي.

الجوانب النفسية في الصراع العربي الإسرائيلي

إن العوامل النفسية لا يمكن فصلها عن الظروف الموضوعية التي تسبب الصراع، فهناك اختلاف في الاهتمام وفروق حادة في الأيديولوجيات بين أطراف الصراع لا يمكن أن نفسرها ببساطة باعتبارها آثارًا لعدم الثقة المتبادلة أو المدركات الخاطئة، لكن العوامل النفسية تسهم في إذكاء هذا الصراع بخلق العوائق التي تحول دون أي تغيير في الأيدلوجيات أو الإدراكات المتصارعة التي تجمدت بفعل العوامل السيكولوجية. فديناميات العلاقة الصراعية تخلق انغماسًا في الصراع يجعل من الصعب على الأطراف أن تغير من سياستها حتى ولو تغيرت الظروف الموضوعية التي أدت إليها، وأصبح هناك سياسة جديدة أكثر ملاءمة لمصالحها القومية. ويكمن الحاجز النفسي هنا في عدم إدراك المصالح الجديدة والموقف المتغير.

إن التغلب على هذه العوائق النفسية لا يحل الصراع، لكنه يمكِّن الأطراف من النقاش على أساس من الظروف الموضوعية والمصالح القومية القائمة في هذه اللحظة بدلاً من التجمد على تصورات قديمة والبحث عن صورة للطرف الآخر في كتب التاريخ[1].

إن التسوية ليست بالضرورة بديلاً عن الصراع، وإنما قد تمثل إحدى مراحله، فإن الأدوات الاقتصادية والدبلوماسية والدعائية لتنفيذ السياسة الخارجية يمكن أن تستهدف نفس الهدف الذي تستهدفه الأداة العسكرية في الصراع العربي الإسرائيلي، وهو تطويع إرادة

(١) هربرت كليمان، «الآثار النفسية لمبادرة السادات على المجتمع الإسرائيلي»، **جريدة الأهرام** (٩ ديسمبر ١٩٧٧).

الطرف الآخر. فإذا اتجهت الأدوات غير العسكرية إلى تحقيق هذا الهدف، فإن مقاومة الطرف الآخر في هذا الصدد دفاعية كانت أم هجومية – تتجاوز الامتناع السلبي عن التعامل إلى المواجهة الإيجابية المنظمة. وفي ضوء ذلك، يمكن أن تتحدد علاقة التأثير بين طرفي تطبيع العلاقات كعلاقة متكافئة أو كعلاقة سيطرة وتبعية.

وإذا كانت إسرائيل استغلت العامل النفسي عبر تاريخ صراعها مع العرب في تحقيق الإدماج السياسي والانتماء الجماعي ليهودها، وفي ربطهم بيهود العالم، فإن تناقضات المجتمع الإسرائيلي بتركيبته المعقدة الفريدة ترتبط بطابعه الأساسي باعتباره مجتمعًا عسكريًّا يعتمد في تماسكه وبقائه وتطوره على جولات القتال المتعاقبة.

وعلى هذا الأساس تعبر سيكولوجية العلاقات المصرية الإسرائيلية بعد التسوية عن حالة تطبيقية من حالات العلاقة متعددة الأبعاد بين علمي النفس والسياسة، تلك العلاقة التي تتبلور في علم النفس السياسي. وإذا كان من المفترض أن يكون لمنطق الخبرة التاريخية المتعلقة بالصراع بين الطرفين، بما تنطوي عليه من مكونات عدوانية، دوره الأساسي في تحديد موضع التسوية من خريطة الصراع النفسي، فإن من المتصور أيضًا أن يؤثر على الكيفية الشكلية والموضوعية لها، وعلى مدى استمراريتها بعد الوصول إليها.

ومثلما يؤثر الجلاء عن الأرض المحتلة على البيئة النفسية لطرفي التسوية، فإن الشكل الذي يتم به هذا الجلاء قد لا يقل أهمية، عن تأثير الجلاء ذاته، فالانسحاب من مستعمرة بعد تدميرها لا يساوي في وقعها المعنوي تسليمها دون إلحاق أي ضرر مادي بها، والانسحاب الكامل لا يتكافأ مع الاستمرار في الاحتفاظ بجزء من الأرض المحتلة أيًّا كانت مساحته.[٢]

(٢) محمد ماهر قابيل، «الصراع النفسي في العلاقات المصرية الإسرائيلية»، **دورية الموقف العربي**، العدد ٦٩ (يناير ١٩٨٦): ٦٩–٧١.

كذلك فإن التمييز بين المواقف الرسمية وغير الرسمية من الأبعاد الشاملة للصراع في ماضيه وحاضره ومستقبله، له علاقته الوطيدة يتبين التناقضات الذاتية والغيرية في إدراك ماهيته. وليس أدل على ذلك من عدم وجود إجماع عربي – حتى بين المتخصصين في علم السياسية – على مفهوم الصراع العربي الإسرائيلي؛ حيث كونه محددًا شاملاً، سلميًّا أو عنيفًا، منضبطًا أو غير منضبط عرضيًّا أو جوهريًّا، مصلحيًّا أو إدراكيًّا، مصيريًّا أو غير مصيري. هذا التفاوت في المفاهيم يعكس بالتالي تباينًا في التصورات المتعلقة بحل الصراع، وفى المواقف المعلنة وغير المعلنة منه، ومن ثم ينعكس بدرجات مختلفة على مسارات الصراع النفسي بين الطرفين.(٣)

سوف يتم تناول البعد النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي من خلال تناول موضوعين أساسيين؛ هما البارانويا في الصراع العربي الإسرائيلي، والحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي، والعوامل المؤثرة في تشكيله.

أولاً: البارانويا في الصراع العربي الإسرائيلي

لا يمكن دراسة البعد النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي بدون إلقاء الضوء على الداخل الإسرائيلي، والشخصية الإسرائيلية، فإسرائيل يعتقد شعبها أنهم أفضل من غيرهم وأنهم شعب الله المختار، وأن الآخرين يناصبونهم العداء، وإذا لم توجد هذه الظروف انتفى تعريف إسرائيل نفسها وسط الأمة العربية.

(٣) المرجع السابق.

فلكل معتدٍ رواية، ولكل ضحية رواية أخرى. رواية المعتدي ووسائل إعلامه تشكل جزءًا لا يتجزأ من إستراتيجيته ومن أدوات حربه التي يجند بواسطتها جبهته الداخلية من جهة، ويحاول من خلالها إضعاف معنويات الخصم من جهة أخرى.

فإذا كنا جميعًا نملك الاستعداد للبارانويا[٤]، فلعل هناك مكانًا في المجتمع لكل من يعاني من درجة كافية من البارانويا قد يميل لأن يزدري نفسه، وينكر حقه في الوجود، ويعتقد أنه أقل من غيره. فنجده تابعًا وخاضعًا، وقد يكون وراء هذا الإعلان لدونيته إحساس مناقض بالعظمة ولكنه محبط، أي إحساس بأنه فعلاً أفضل القوم، ولكنه أحبط في محاولاته لتحقيق ذلك، فأخفاه بإبراز نقيضه. فكثيرًا ما نجد أن الإنسان الخاضع ما هو إلا طاغية قد تراجع، ولعله ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض، وبطبيعة الحال هناك العكس أي الذي يميل إلى تأكيد ذاته وإعلان إحساسه بالأفضلية على الآخرين. وهذا النمط قد يجد من يؤكد له هذا الإحساس من ذوي النمط السابق، فالسيد سيد لأن هناك من يؤكد له ذلك، فالذي يعتقد أنه عظيم والذي يعتقد أنه دنيء، كلاهما يكمل الآخر، ولكن التكامل ينفي التشابه، فكلاهما يرى الآخر مختلفًا عنه بل مناقضًا له. ولذا فكلاهما يشعر بالوحدة وانعدام الندية وغياب الحوار، والوحيد خائف؛ لأنه يعلم أن الآخر يعد له العدة ليهجم عليه.

ومثل هذا المجتمع يكون غالبًا ضعيف البنية غير متماسك ويسهل الانقضاض عليه من الخارج. وهو يرد على الانقضاض بانقضاض مضاد أو انقضاض وقائي، وينتهي به الأمر لأن يكون في علاقته مع ذلك الذي تصارع معه إما سيدًا أو مسودًا، فهو لا يعرف الندية في داخله، وبالتالي لا يعرفها في علاقته مع الخارج.

---

(٤) البارانويا «جنون الاضطهاد» "Paranoia" مرض نفسي مزمن يتسم بالوهم"Delusion"؛ وهي أفكار ضلالية يعتنقها المريض ويؤمن إيمانًا وثيقًا بتعرضه للاضطهاد والملاحقة ويفسر سلوك الآخرين تفسيرًا يتسق وهذا الاعتقاد.
لمزيد من التفاصيل: فائز محمد علي الحاج، **جنون الهذاء الزوري: (البارانويا)** (د.م.، ١٩٨٣): ٧.

والبارانويا الإسرائيلية مصطلح يطلق على شعور اليهود بأنهم ضحية ملاحقة من قبل شعوب العالم. هذا الشعور الذي ارتبط بمآسٍ مر بها اليهود في التاريخ، إلا أن الصهيونية وظفته وحولته إلى «وعي ضحية» و«تراث ضحية» يستحوذ عقلهم وقلبهم في كل مرة يواجهون من يعارضهم أو يعاديهم.

هذه البارانويا شكلت جزءًا لا يتجزأ من الإستراتيجية الصهيونية التي بفضلها أقنعت اليهود للهجرة والاستيطان في فلسطين من جهة، وبفضلها استطاعت كسب تعاطف دول العالم معها. وفق عقلية البارانويا ووعي الضحية تمت صياغة وترويج رواية الحركة الصهيونية بوصفها حركة دفاع عن البقاء، وذلك لطمس حقيقة تحالف المصالح بين الصهيونية باعتبارها حركة استيطانية وبين الاستعمار. هذه الرواية شكلت الرواية «الإنسانية والأخلاقية» التي بررت وغطت بشاعة ممارسات هذا التحالف أمام الرأي العام اليهودي والعالمي. البارانويا ووعي الضحية يشكلان عنصرًا رئيسيًّا في العقلية اليهودية اليوم والتي تشوه رؤية اليهود للواقع وتجعلهم يفسرون المقاومة الفلسطينية على أنها نوع من العداء «اللاسامي» لليهود، وبالتالي يبررون استمرار الاحتلال بحجة الدفاع عن النفس، بدلاً من أن يدركوا أن الاحتلال هو المسبب الرئيسي لعمليات المقاومة.(٥)

ففي إسرائيل يعتقد الناس أنهم أفضل من غيرهم وأنهم شعب الله المختار، وأن الآخرين يناصبونهم العداء، وإذا لم توجد هذه الظروف انتفى تعريف إسرائيل نفسها، ولذا وجدت إسرائيل نفسها وسط الأمة العربية في زمننا هذا، فهي جسم غريب تكون أساسًا مما تبقى بعد أن فشل الغرب في التخلص منه كما كان يأمل هتلر. إنه أيضًا الضحية الذي يتمكن الغرب بواسطته من التكفير عن ذنبه وهو أنه ظالم ومستبد، فهو يكفر بأن يغدق على إسرائيل، ولكنه

(٥) Marwan Dwairy, "The Role of Fear and Guilt in the Israeli Politics", Qadaya Israelya: The Palestinian forum for Israeli Studies 4 (Fall 2001):32-340.

في الوقت ذاته يعلم أن في إغداقه هذا أكثر من تكفير، فهو يقوي حليفه ويدفع أجر الجندي المقدام الذي وقف في الصفوف الأولى في الصراع مع العرب. إنه ينتقم من العرب ويسعى لإخضاعهم أو إطالة خضوعهم الذي ظنوا أنهم تجاوزوه.(٦)

البارانويا اليهودية كانت ولا زالت جزءًا لا يتجزأ من الإستراتيجية العدوانية الإسرائيلية التي بواسطتها نجحت في جمع صفوف الجبهة الداخلية الإسرائيلية وراء الحرب والتوسع. اختراق هذه البارانويا يجب أن يكون هدفًا فلسطينيًّا وجزءًا من إستراتيجية فلسطينية وعربية تشمل برنامج السلام الواضح ومقاومة الاحتلال والاستيطان بشدة وحزم. أما المقاومة غير المدروسة من حيث الكم والمكان والتوقيت ربما تفرغ شحنات الغضب والنقمة، لكنها من الممكن أن تكون كارثية.(٧)

الدفاعيات النفسية المرافقة للبارانويا

إن التمسك بدور الضحية وشيطنة الآخر تمر عبر استعمال آليات دفاعية نفسية غير واعية (Defense Mechanisms) تشوه الواقع من جهة وتحافظ على الراحة النفسية والثقة بالنفس من جهة أخرى، وفيما يلي بعض الدفاعيات النفسية التي تعمل عادة لتكمل كلٌّ منها مهمة الآخر.(٨)

(٦) محمد شعلان، **مصر والعرب وإسرائيل: انعكاسات من العيادة النفسية** (القاهرة، ١٩٨١): ٢٨٣–٢٨٥.

(٧) Dwairy, "The Role of Fear and Guilt in the Israeli Politics": 40.

(٨) Marwan Dwairy, "Psychology of Oppressor and Psychology of Oppressed (Psichologia shel Medake , Psichologia shel Meduke)", In Real Time: Al-Aqsa, edited by A. Ophir (n.p., n.d.): 280-287.

الإنكار Denial

هناك حقائق عديدة لو دخلت وعي اليهود والإسرائيليين لنسفت النظام الذهني والنفسي الذي يعتمد الحكاية الصهيونية التي يتربى عليها كل طفل يهودي. من بين هذه الحقائق: تواطؤ الصهيونية مع جهات لاسامية، وعدم استنفاد كل الوسائل الممكنة لإنقاذ اليهود من النازية، واقتلاع الشعب الفلسطيني وتشريده، وانتهاج سياسة تمييز واضطهاد عنصري ضد العرب في إسرائيل، واحتلال شعب آخر والقيام بجرائم بشعة ضده. آلية الإنكار تحرر صاحبها من عبء هذه الحقائق على العقل والضمير.

الإنكار، مثله مثل بقية الدفاعيات النفسية، يشوه الواقع الموضوعي ويبعد الشخص عن إدراكه، خاصة إدراك مكونات الواقع التي تخل بالتوازن النفسي. الإنكار إذن يمس صميم التفكير المنطقي بغض النظر عن مستوى ذكاء صاحبه، ويفسر لنا كيف لا يرى الإسرائيلي التناقض البديهي بين السلام والاحتلال. فهو يطالب الفلسطينيين بالسلام ولا يدرك في تلك اللحظة أن هناك احتلالاً أصلاً، وأنه لا يمكن تحقيق سلام بوجود الاحتلال. كذلك، لا يرى التناقض البديهي بين التعايش والتمييز القومي، فهو يطالب المواطنين العرب في إسرائيل بالتعايش ولا يدرك أنه لا يمكن تحقيق التعايش طالما التمييز قائم. حين يطرح العربي قضيتي الاحتلال والتمييز في جداله مع الإسرائيليين باعتبارهما شرطين للسلام وللتعايش يلقى استغرابًا ويتهم بأنه يقحم السياسة في غير مكانها. هذا هو الإنكار بعينه الذي يحافظ بواسطته الإسرائيلي على توازنه النفسي بواسطة إنكار هذا الواقع غير المتوازن. يشبه الإنكار دفاعية أخرى وهي الكبت التي ينكر بواسطتها الشخص ليس الحقيقة الخارجية الصعبة فقط بل حقيقة داخلية «دافع أو شعور» لا تنسجم مع صورة الشخص عن نفسه. الأطفال الذين يعانون قمع والديهم يكبتون غضبهم من الوالدين، والأطفال يكبتون غيرتهم من إخوتهم

وكراهيتهم لهم تحاشيًا للشعور بالذنب. بنفس الروح يكبت الصهيونيون وإسرائيل نواياهم الأنانية والعدوانية وهم مقتنعون بأنهم وطنيون وإنسانيون.(٩)

الإسقاط Projection

لتدعيم الإنكار والكبت وإبعاد المضامين السلبية تمامًا عن الذات يقوم المرء بدون وعي بإسقاط هذه المضامين على الآخر. الإسقاط يُبعد التهمة عن الذات وفي الوقت نفسه يبرر النوايا العدوانية والعنصرية ضد ذلك الآخر ويبرر ممارستها بحجة أن الآخر هو الطرف الشرير. شيطنة الفلسطيني والعربي هي تطبيق حرفي لدفاعية الإسقاط: إسقاط عدوانية الصهيونية وإسرائيل على الفلسطيني؛ لتثبيت إنكار العدوانية ونفيها عن إسرائيل من جهة، ولتبرير العدوانية ضد الفلسطينيين من جهة أخرى. لتثبيت الإنكار والإسقاط تقوم وسائل الإعلام الإسرائيلية عمدًا بتسخير اللغة لهذا الغرض، فتسمية المكافح الفلسطيني «مخربًا» والنضال الفلسطيني «إرهابًا» إنما يسقط الشر على الفلسطيني من جهة، ويحول دون إيقاظ ضمير الإسرائيليين ضد الممارسات العدوانية الإسرائيلية من جهة أخرى.(١٠)

التكوين العكسي Reaction formation

أحيانًا لا يكفي إنكار الحقيقة المُرة وتكون هناك حاجة لإظهار عكس هذه الحقيقة لإخفائها ليس عن الآخر فحسب بل عن وعي صاحبها. الأطفال الذين يشعرون بالغيرة يظهرون سلوكًا معاكسًا للغيرة فيفرطون بالتصريح بحبهم لإخوتهم ويقومون بضمهم بشكل زائد؛ لكي يبعدوا عن وعيهم، في الأساس، الشعور العدواني لإخوتهم. الصهيونيون

(٩) S. Thompson، "Raging Against Self Defense: A psychiatrist Examines The Anti–Gun Mentality"، Jews for the Preservation of Firearms Ownership، http://jpfo.org/filegen–n–z/ragingagainstselfdefense.htm.

(١٠) Marwan Dwairy, "Psychology of Oppressor and Psychology of Oppressed": 237.

وإسرائيل يبالغون في تأنسنهم تجاه بعض المآسي فيرسلون دعمًا إنسانيًا لشعب منكوب هنا ويرسلون فرقة إنقاذ لبلاد انتكبت في زلزال هناك، يبالغون في إبراز كل صغيرة يقدمونها للمواطنين العرب ليس لإقناع الآخر فحسب بل في الأساس لينفوا أمام أنفسهم مواقفهم العنصرية وممارساتهم الاضطهادية. التكوين العكسي يقف وراء دعم الغرب غير المتحفظ لإسرائيل واصطفافه فورًا ضد كل ما تطلق عليه إسرائيل والصهيونية صفة اللاسامية. يقوم الغرب بالتضامن مع اليهود وإسرائيل ويتحاشى مواجهتها ليس خوفًا من أن يتهم باللاسامية فحسب، بل ليؤكد لنفسه وينفي هذه الصفة أمام نفسه؛ لينقي ضميره بعدما اقترفه من جرائم لاسامية ضد اليهود وضد شعوب لاسامية أخرى.(١١)

ثانيًا: الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي

مفهوم الحاجز النفسي ينسب لـ «كورت ليفين» ويشير للعوامل التي تكف وتثبط السلوك في مجال الحياة، مثل كل القوى التي تمنع الفرد من أداء عمل أو نشاط ما. فكل عقبة أو مانع يصادف الإنسان في حياته النفسية سواء تغلب عليه أم لا يعتبر حاجزًا.

والحاجز النفسي يعد حالة عقلية تتمثل في سلبية الفرد التي لا تمكنه من التأثر بما حوله وتمنعه من إنجاز أفعال معينة. وتتمثل الآليات الانفعالية للحواجز النفسية في خبرات ومواقف انفعالية سلبية مكثفة. وتتجسد الحواجز النفسية في السلوك الاجتماعي للفرد من خلال الحاجز الاتصالي؛ حيث تتجلى في غياب المشاركة الوجدانية المتبادلة بين الأشخاص، وكذلك في الحواجز الدلالية.(١٢)

(١١) Ibid: 38-40.

(١٢) فرج عبد القادر طه، وآخرون، **معجم علم النفس والتحليل النفسي** (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.): ٢٥٤.

وقد جاءت إشارة البدء في إعادة صياغة الحاجز النفسي من جانب الرئيس السادات؛ إذ استخدم مصطلح الحاجز النفسي عندما أعلن عن عزمه زيارة القدس، ثم تبلورت في خطابه بالكنيست الإسرائيلي؛ حيث ذكر أن هذا الحاجز يمثل ٧٠٪ من المشكلة بين العرب والإسرائيليين. وكان هذا الطرح من ضرورات الزيارة. فطالما أن ٧٠٪ من الصراع بسبب مشكلات نفسية فإن زيارة الرئيس لإسرائيل لتحطيم هذا الحاجز النفسي بكل ما يكتنفها من مشكلات وصعوبات ربما تعد عملاً ريادِيًّا يفتح آفاقًا جديدة للحل في نظره. ويكسر الحلقة المفرغة التي تدور فيها القضية، ويساعد على إيجاد مخرج سلمي لشعوب المنطقة من سلسلة العنف وردود أفعالها، وهو ما أعلنه الرئيس السادات في خطابه في الكنيست الإسرائيلي في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧.[١٣] وتخطي هذا الحاجز هو هدف زيارة القدس كما أعلن السادات في خطابه في نوفمبر١٩٧٧.[١٤]

لقد تلقت الدوائر العلمية في إسرائيل إشارة الرئيس السادات بشأن المضمون النفسي للنزاع، وسارعت بتطويع الفكرة من خلال عرض أنه إذا كان الرئيس السادات أكد قبل مجيئه إلى إسرائيل أن ٧٠٪ من النزاع هو نزاع نفسي، ولكنه لم يفصل لنا ما هي الثلاثين في المائة الأخرى، والسؤال ما الذي عبر عنه في هذا القول؟ ألم يعبر بذلك عن قول معروف، وهو أن

(١٣) "علينا أن نعترف معًا، بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم في عام ١٩٧٣، ولكن بقي جدار آخر، هذا الجدار الآخر يشكل حاجزًا نفسيًّا معقدًا بينكم وبيننا، حاجزًا من الشكوك، حاجزًا من النفور حاجزًا من خشية الخداع، وحاجزًا من الأوهام حول أي تصرف أو فعل أو قرار، وحاجزًا من التفسير الحذر الخاطئ لكل حديث أو حدث. وهذا الحاجز النفسي هو الذي عبرت عنه، في تصريحات رسمية، بأنه يشكل سبعين في المائة من المشكلة. وإنني أسألكم اليوم – بزيارتي لكم – لماذا لا نمد أيدينا، بصدق وإخلاص، لكي نزيل معًا شكوك الخوف والغدر والتواء المقاصد وإخفاء النوايا؟

لماذا لا نتصدى معًا بشجاعة الرجال، وبجسارة الأبطال الذين يهبون حياتهم لهدف أسمى؟

لماذا لا نتصدى معًا بهذه الشجاعة والجسارة لكي نقيم صرحًا شامخًا للسلام، يحمي ولا يهدد..يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان؟"

كلمة الرئيس محمد أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي، بجلسة الكنيست الخاصة رقم ٤٣ للكنيست، بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧.

http://sdatw3k-h2001/sadat/speeches/browser.aspx?SID=650

(١٤) "وقد اهتديت إلى أصعب قرار، وقلت لكم وللعالم إنني مستعد في سبيل ألا يجرح ابن من أبنائي أن اذهب إلى الكنيست في إسرائيل؛ لأصارحهم بكل الحقائق ولأقول لهم كلمة الحق والعدل والسلام؛ حتى أحطم بذلك جدار الشكوك والخوف وفقدان الثقة".

خطاب الرئيس السابق السادات في جلسة افتتاح مجلس الشعب، وهي الجلسة الشهيرة التي أعلن فيها السادات استعداده للذهاب للقدس بل والكنيست الإسرائيلي، ١٩٧٧".

كل نزاع موجود في ذهن الإنسان أولاً وقبل كل شيء ولو لم يكن موجودًا في ذهنهم لما كان له وجود؟ إن في صياغة كهذه، وقول كهذا تكمن أيضًا مصالح الدولة في ذهن الناس. وبهذا التحديد أو الوصف لم نصف أي شيء لفهم الموضوع المطروح أمامنا.

ولكن يبدو أن الرئيس أراد أن يقول شيئًا آخر وهو: أن هناك علاقات معينة متبادلة بين المجال النفسي والمصالح. وعبر السادات عن ذلك في مناسبات أخرى. وقال إن الدول العربية لا تثق في إسرائيل، وإن إسرائيل لا تثق في الدول العربية. والذي برز من هذه الأقوال أن تغييرًا معينًا في المجال النفسي من شأنه أن يؤثر على المصالح، وأن تغييرًا معينًا في تحقيق المصالح من شأنه أن يؤثر في المجال النفسي. ويبدو أن السادات أراد عن طريق زيارته لإسرائيل أن يضع هذا الافتراض موضع الاختبار.(١٥)

العوامل المؤثرة على الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي

بالرغم من إقامة علاقات مصرية إسرائيلية على المستوى الرسمي فإن السلام القائم تشوبه حالة من الفتور، فلقد تطورت العلاقات على مدى هذه الفترة بين الدولتين وإن كان ذلك بشكل بطيء ومحسوب. لكن وقعت في نفس الوقت بعض الأحداث التي عكرت الجو العام بالإضافة إلى رواسب الماضي، فساهمت الأفعال الإسرائيلية المتوحشة في تشويه صورة إسرائيل باعتبارها شريكة في السلام، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى استدعاء الماضي للظهور مرة أخرى. ولعل من أبرز العوامل التي ساهمت في زيادة الحاجز النفسي بين طرفي الصراع ما يلي:

(١٥) ألوف هارايفين، "**هل ستقوم بوجه عام علاقات ثقة بين إسرائيل والدول العربية**"؟، ورقة عمل، (د.ن، د.ت): ص٧.

١- الآراء المسبقة، المخاوف، والخبرات السابقة

كان قيام إسرائيل في المشرق العربي حدثًا فريدًا من نوعه في تاريخ المنطقة؛ فلقد شهد المشرق العربي منذ بدء تاريخه الطويل غزوات وحروبًا وتمزقات، ولكنه منذ الفتح الإسلامي حتى الربع الأول من القرن العشرين، ظل محافظًا على هويته العربية: لغة وتاريخًا وثقافة وجغرافية. ومع قيام إسرائيل، ظهرت إلى الوجود دولة غريبة الوجه واليد واللسان، وتحمل طابعًا مختلفًا جد الاختلاف عن طابع المنطقة.

وليس هذا فحسب، بل إن طريقة تكون هذه الدولة وارتباطها بالاستعمار البريطاني بخاصة، وطردها السكان الأصليين، وسياستها العدائية الدائمة تجاه دول المحيط العربي وحروبها المتكررة ضدها، جعلت من الصراع معها السمة البارزة التي طبعت الحالة الراهنة في التاريخ. والمقصود هنا الصراع بكافة أشكاله السياسية، والعسكرية، والثقافية، والاقتصادية، والنفسية.[١٦]

أدت الكثير من الممارسات الإسرائيلية إلى ترسيخ مجموعة من العقائد والأفكار المسبقة بالنسبة لصورة إسرائيل، وإلى وجود استعداد كبير لدى الشعب المصري لتغذية مشاعر الانتقام من الإسرائيليين. إن خريطة مرسومًا فيها حدود «إسرائيل الكبرى» من النيل في الغرب إلى الفرات في الشرق، وفقًا لصورة معلقة في الكنيست في القدس وتعبر هذه الخريطة عن التطلعات التوسعية لإسرائيل، خريطة راسخة في أذهان العرب. هذا فضلاً عن أن هناك رموزًا أو دلالات سيكولوجية كثيرة في أنشطة الاستخبارات الإسرائيلية تؤدي إلى تكوين صورة عن إسرائيل، وتنعكس هذه الدلالات حتى في الأعمال الفنية وفي التعبيرات

(١٦) أحمد صدقي الدجاني، وآخرون، **الحركة الصهيونية والصراع العربي: الإسرائيلي في مائة عام..دروس الماضي... وآفاق المستقبل** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠٠٠): ٣٤٩.

المستخدمة مثل، الدلالة السيكولوجية لمبنى الموساد العالمي الذي يضاعف الخوف في نفوس العرب، وكذلك يوجد في إسرائيل ١٥٠٠ نصب تذكاري للمظليين والطيارين وسائقي الدبابات والمشاة.(١٧)

إن الخبرات والتجارب السابقة مع إسرائيل ساهمت في تكوين صورة ذهنية مستمرة عن إسرائيل في المجتمع المصري – هي صورة سلبية – وأن ما يظهر من صور أخرى من حين لآخر لا يعني أن الصورة السلبية قد تغيرت، بل هي كامنة ما تلبث أن تظهر عند أول ظرف يهيئ لظهورها من مكمنها، وعادة ما يتعلق هذا الظرف بطبيعة ومجرى الصراع مع إسرائيل.

إن أسبابًا عدة اجتمعت لتسهم في بناء الحاجز النفسي بين الطرفين الذي يسهم بدوره في بناء الصورة السلبية، فخبرة المصريين المباشرة مع الصراع ولدت قناعات صلبة مليئة بالصور العدائية السلبية نحو إسرائيل. ومن أهم هذه الأحداث الغارات الجوية وقتل الأطفال في بحر البقر، والمواجهات في شوارع بورسعيد والسويس وهدم البيوت، ووجود جيل من الشباب على جبهة القتال دون حلم أو أمل، والمعاناة اليومية في الحصول على متطلبات الحياة نتيجة ما تخلفه الحروب. (١٨)

إن الحروب التي تم خوضها في الماضي تنشئ التاريخ الجماعي على المعاناة وفقدان الثقة، وينتقل في الذاكرة الجماعية من جيل إلى جيل، فهذه التجارب السابقة تضع الأساس

(١٧) تحيي النصب التذكارية ذكرى الموتى في خمس حروب تقليدية واسعة النطاق؛ حيث يقف النصب داخل محيط معسكر التأهيل. ويتكون من عدة مبان بحوائط خرسانية وكتلة من حوائط بالحجر الرملي تتجمع على هيئة «مخ بشري». وتم اختيار هذا الشكل؛ لأن الذكاء هو كل ما يعنيه العقلَ البشري وليس شكلاً برونزيًّا يقف وقفة بطولية.

لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى: عمر هارون الخليفة، **علم النفس والمخابرات** (بيروت: المؤسسة العربية، ٢٠٠٠): ١٥٢–١٥٣.

(١٨) سعيد المصري، «الرؤى الاجتماعية والثقافية لإسرائيل في المجتمع المصري»، في **إسرائيل من الداخل: خريطة الواقع وسيناريوهات المستقبل**، تحرير نادية مصطفى، أعمال المؤتمر السنوي السادس للبحوث السياسية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٣): ١٢٨–١٣٥.

لتفاعلات الحاضر والمستقبل[١٩]. من خلال هذا المفهوم نفسر الصراع العربي الإسرائيلي على أساس أن التجارب التاريخية والمآسي في الذاكرة الجماعية للشعبين من أصعب وأعقد ما يواجه هذا الصراع، وذلك ما يجعل الصراع مستمرًّا.

ويمكن القول: إن الآراء المسبقة والمخاوف من إسرائيل كانت جزءًا من الجو العام مع عوامل أخرى ساهمت في التباطؤ والحذر الذي تقدم به النظام في مسار تطبيع العلاقات مع إسرائيل.

٢- الحروب مع إسرائيل

أثبتت التجارب والحروب السابقة أن الآثار النفسية للحرب تختلف بين الأشخاص الذين عاشوا داخل الحدث وغيرهم ممن كانوا في منأى عن الخطر المباشر، بمقدار الإحساس الشخصي بهول الحدث، وبمدى تفاعل الفرد مع الأحداث وشعوره بأنه معني بالحرب.[٢٠]

إن الحروب من المؤثرات الهامة لإحداث تغيرات نفسية واجتماعية لدى الأفراد، خاصة فيما يتعلق باتجاهاتهم ومعاناتهم لأنواع ودرجات الاضطرابات النفسية والاجتماعية،إذ لايقتصر دور الحرب على الخبرة الصادمة فقط، وإنما يمتد التأثير إلى بناء حاجز نفسي مع العدو.[٢١]

---

(١٩) Claudia Seymour, "Social Psychological Dimensions of Conflict", Beyond Intractability, http://www.beyondintractability.org/essay/social-psychological

(٢٠) ريما سليم ضومط، «غالبًا ما تظهر بعد فترة الآثار النفسية للحرب»، مجلة الجيش، العدد ٢٥٤ (أغسطس ٢٠٠٦). http://www.lebarmy.gov.lb/article.asp?ln=ar&id=12466

(٢١) Richard F. Molhico, "The Psychosocial Impact of War Trauma and Torture on Southeast Asian Refugees Am.J." **Psychiatry** (12 December 1987): 144.

إن حروب الصراع العربي الإسرائيلي كانت ولازالت محور الأحداث في القرنين العشرين والحادي والعشرين، فكثير من الحروب اندلعت بين العرب وإسرائيل منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن، فما زالت إسرائيل ترتكب الجرم في حق العرب، وهو ما يمثل بدوره عقبة قوية تعمل على تغذية الحاجز النفسي بين المصريين والإسرائيليين.

إن الصراع العربي الإسرائيلي صراع ممتد، ولا يمكن أن ننكر الآثار الاجتماعية والنفسية لهذا الصراع، وبالطبع هناك تغييرات نفسية واجتماعية طرأت كردود فعل لما مر به العرب من خبرات صادمة في الحروب؛ وذلك للعناية بها ولتوفير الظروف والإمكانات وأساليب الرعاية المختلفة لاستعادة الطمأنينة والأمن النفسي، والعمل على تعديل ما أصاب الجنود والمدنيين من سلبيات واضطرابات على حدٍّ سواء.

٣- أسطورة التفوق الإسرائيلي

لقد دأبت كثير من أجهزة الإعلام العربية الرسمية والشعبية، وكثير من رجال الحكم وحملة الأقلام على ترديد قضية التفوّق الإسرائيلي وكأنها مُسلمةٌ من المسلمات التي لا تحتاج إلى نقاش؛ وعلى ترسيخها في الأذهان والمشاعر؛ وعلى الدعوة إلى الاعتراف بها، والانطلاق منها، والبناء عليها في مخططات الحاضر والمستقبل؛ وعلى اتخاذها ذريعة لكل تخاذل واستسلام لنكون – في زعمهم – «عِلميين واقعيين!» بقبولنا الأمر الواقع الحالي، واستسلامنا له، وتصرفنا على أساسه؛ لا «عاطفيين خياليين» برفضنا له، واستمساكنا «المتحجر» بحقنا الشرعي الثابت في الوطن والكرامة والحياة. ويستغل هؤلاء ما نزل وما يزال ينزل بالفلسطينيين والمسلمين من الهزائم والكوارث، للتدليل على صحة مذهبهم

ومسلكهم، ألوانًا باطلة ماكرة من الاستغلال. وهو ما يقوم بدوره بزيادة حجم الحاجز النفسي.[٢٢]

٤- الفكر السياسي الصهيوني وعقلية الحصار

لم يكن أمام إسرائيل بكل عُنصريتها وأطماعها التوسعية وسياستها العدوانية إلا أن تأخذ صورة الدولة العسكرية الفاشية التي تقوم على العنف المسلح، ولذلك بوأت العمل العسكري مكان الصدارة على أساس أنه العمل الأهم والركيزة المضمونة لإنشاء وبناء وتوسيع دولة إسرائيل على حساب الأمة العربية. إن إسرائيل ترى أنه لا يمكن أن تكون إسرائيل في أمان وسلم دائم إلا إذا اعتمدت على العنف المسلح والعمل العسكري في علاقاتها مع العرب الذين يحيطونها من كل الجوانب، فاليهود يعتقدون أنه سيأتي يوم يقوم فيه العرب بالهجوم على إسرائيل وتدميرها، لذلك نجد حزامات أمنية من المستوطنات تمثل رادعًا لأي هجوم عربي وتتصدى له.

إن العرب واليهود يقتنعون بأن الأمن هو أساس العلاقة بينهما، ويشكل فكرهم ومعتقداتهم، ويرجعون للأمن في أي قرارات يتخذونها. ونستدل على أهمية هذه المعتقدات بما قاله «دانيال بار تل»: إن المعتقدات المجتمعية حول الأمن تشدد على أهمية السلامة الشخصية والبقاء على قيد الحياة الوطنية وتحديد الظروف الملائمة لتحقيق أهدافها في سياق صراع يستعصي على الحل. فهذه المعتقدات ضرورية لمجتمعات في صراع يستعصي على الحل ينطوي على العنف والأعمال العدائية والحروب، إنها تعطي الأمن أولوية عالية تكون

(٢٢) نبيل شبيب، **حقيقة التفوّق الإسرائيلي: دراسة مقارنة لأسباب القوّة وإدارتها السياسية في الحروب الماضية** (ألمانيا: المركز الإسلامي في آخن، ١٩٨٢):٤.

بمثابة الأساس المنطقي لاتخاذ القرارات الشخصية والمجتمعية، وحشد أفراد المجتمع للمشاركة الفعالة في الصراع.(٢٣)

إن عقلية الحصار الإسرائيلية قديمة، فهي تمتد إلى ٢٠٠٠ عام؛ حيث إن العالم يعادي السامية منذ القدم، وأيضًا جاءت المحرقة الإسرائيلية فهي لا تزال تشكل صدمة للمجتمع الإسرائيلي، فاليهود يقتنعون بمعادة العالم لهم وحصارهم؛ حيث إن ستة ملايين يهودي لقوا حتفهم والعالم لا يزال غير مبال، فهم يقتنعون أن تاريخهم مبني على معاداة العالم لهم. (٢٤)

فالصراع العربي الإسرائيلي برغم أنه يختلف كثيرًا عن المحرقة فإنهم فعلوا الكثير من أجل الحفاظ على عقلية الحصار، مع قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨ حاولت الدول العربية بنشاط تدميرها، فتعرضت إسرائيل للغزو من قبل خمسة جيوش نظامية مصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان. وبعد ذلك أغلقت جميع الدول العربية حدودها وأعلنت فرض حظر على إسرائيل، وقامت بالضغط على العالم لوقف العلاقات مع إسرائيل والحفاظ على حالة الحرب، ورفضت الاعتراف بإسرائيل، وخاضت إسرائيل حروبًا كبرى عدة مع الدول العربية بالإضافة إلى الهجمات الفلسطينية ضد اليهود، كل ذلك عزز معتقدات الحصار وعزز الحاجز النفسي، وأيضا يعتبرون في كثير من الأحيان انتقادات المجتمع الدولي إزاء السياسات الإسرائيلية بمثابة دليل على نطاق واسع لمعاداة السامية.

---

(٢٣) Paper were presented at annual meeting, Daniel Bar-tal, and Dikla Antebi, "Siege Mentality in Israel", **The international society of political psychology,** Tel Aviv (June 1989), http://www.psych.lse.ac.uk/psr/PSR1992/1_1992BarTa.pdf

(٢٤) Ibid.

ويتلخص الفكر الصهيوني في مجموعة من الأفكار؛ وهي كالتالي:

١) التغلب على الكم العربي بالكيف اليهودي.

٢) تطبيق نظرية سياسة الاستيطان الدفاعي لمجموعات من الشعب لزيادة القدرة الدفاعية وخلق الرابطة بين الفرد والأرض في المستعمرات الدفاعية على أرض فلسطين والجولان.

٣) إنشاء جيش قوي مجهز ليساير العصر الحديث والدفاع عن الدولة وتنفيذ مخططاتها التوسعية لتحقيق الأهداف القومية العليا.

٤) الاعتماد على إحدى الدول الصناعية الكبرى لدعمها بالسلاح والعتاد ومؤازرتها سياسيًّا واقتصاديًّا والدفاع عن وجهة نظرها. هذه هي أهم مقومات الفكر الإسرائيلي.[٢٥]

٥- نظرية الأمن الإسرائيلي

تقوم نظرية الأمن الإسرائيلي في الأساس على التفوق والردع ومفهوم الحرب الخاطفة والقصيرة، ولذا نرى أن القدرات النووية لإسرائيل تتنامى مقارنة بكل أقطار الوطن العربي مجتمعة. وترى إسرائيل أن استمرار أمنها لا يدوم إلا إذا استمر الأمن القومي العربي معرضًا للخطر، وهكذا فإن العلاقة بين الأمن القومي العربي والوجود الإسرائيلي تدخل في إطار السياسة الصفرية؛ حيث إن تحقق أيٍّ منها يعني نفي وإلغاء الآخر.

ويرتكز مفهوم إسرائيل للأمن القومي على ضمان توفير القدرة على تأمين كيان الدولة وحماية مصالحها الحيوية من خلال امتلاك القدرات العسكرية المتطورة، والتي تمثل من وجهة نظر إسرائيل الخيار الأكثر أهمية لدعم كيانها وبقائها، وبذلك تكون القوى المواجهة لها مدركة لخطورة تخليها عن امتلاك مقومات بناء القوة الشاملة المؤثرة إقليميًّا، وتقوم

(٢٥) محمد العملة، **الأمن القومي العربي ونظرية تطبيقه في مواجهات الأمن الإسرائيلي** (عمان: دار الجليل، ١٩٩٠): ٦٥-٦٧.

إسرائيل بتطوير قدرتها النووية بناءً على الإستراتيجية العسكرية القائمة على أساس الاحتفاظ بالتفوق العسكري واحتكار الرادع الاستراتيجي النووي، وتعتبره رادعًا إقليميًّا للدول العربية المجاورة، إلا أننا نرى أن المشكلة تكمن في أن تطوير هذه القدرات قد تتحول إلى قوة نووية عالمية ومن هنا يصبح الأمر في نطاق الإطار العالمي وإضعاف القرارات الخاصة ولاسيما من مجلس الأمن بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل.[٢٦]

٦- قضية القدس

تمثل القدس حجر الزاوية في الصراع العربي الإسرائيلي، وبؤرة التأثير في اتجاهات ومسارات هذا الصراع على المستوى الإقليمي والدولي. وهي واحدة من القضايا الساخنة في صراع يعتبر الأعقد والأطول عمرًا في تاريخ الأمم المتحدة.[٢٧] فالقدس في الاعتقاد الإسلامي، لها مكانة دينية مرموقة، اتفق على ذلك المسلمون بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، بل وإجماع الأمة العربية كلها من أقصاها إلي أقصاها. فليس أمرًا غريبًا أن يلتزم الجميع بوجوب الدفاع عن القدس، والغيرة عليها، والذود عن حماها، وحرماتها ومقدساتها.[٢٨]

فترتكب قوات الاحتلال الإسرائيلي مجازر مروعة ضد العائلات الفلسطينية المدنية البريئة، وهو ما يثير مشاعر العرب ويؤجج الحاجز النفسي ضد الإسرائيليين. لقد كشفت عمليات التلذذ بالقتل السادية التي ارتكبها جنود الاحتلال مع الفلسطينيين التأكيد على أن الإسرائيليين هم أقرب إلى المرضى النفسيين، فتعكس ممارسات الاحتلال الإسرائيلي سادية

(٢٦) محمود سعيد عبد الظاهر، **السلاح النووي الإسرائيلي بين الحقيقة والإبهام** (دولة الإمارات العربية المتحدة: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠١): ١٥-١٧.

(٢٧) وليد حسن المدلل، «إسرائيل ومستقبل التسوية في القدس، غزة – فلسطين»، **مجلة الجامعة الإسلامية** ١٦، العدد ٢ (يونية ٢٠٠٨): ٨٠٩.

(٢٨) يوسف القرضاوي، «القدس قضية كل مسلم»، أخوات من أجل الأقصى،
http://www.foraqsa.com/08DFEA19-FF42-48CD-8C1D-90C833539002/FinalDownload/DownloadId-53D245BA7DDE6B8D00375E1F873FC6F5/08DFEA19-FF42-48CD-8C1D-90C833539002/library/books/aqsa_books/alQudsMuslimIssue/alQudsMuslimIssue.pdf

مظلمة يمارسها جنوده ضد المواطنين الفلسطينيين تأخذ أبشع صورها باستهداف متعمد للأطفال بالقتل والأذى النفسي والجسدي.

هذا فضلاً عن ما قامت به قوات الاحتلال من خلال تحويل قطاع غزة خلال الحرب إلى مختبر لكافة أسلحتها، خاصة التي تستخدمها لأول مرة، من بينها الفسفور الأبيض ومتفجرات المعدن الكثيف الخامل «الدايم»؛ حيث تسببت هذه الذخائر الفتاكة والمحرمة دوليًّا ليس فقط في قتل مئات المواطنين بل في بتر وتقطيع أوصال المئات من الأطفال والنساء والشباب الذين أصيبوا بها، إلى جانب العديد من المواطنين الذين فقدوا أبصارهم بعد احتراق عيونهم جراء تلك الأسلحة المستخدمة.

وأشار الطبيب النرويجي إلى أنه يعمل في مناطق الحروب منذ ٣٠ عامًا، ولكنه «لم ير مثل هذه الإصابات من قبل، متهمًا إسرائيل بتحويل غزة إلى حقل تجارب للسلاح الفتاك الجديد.[٢٩]

وجاء استخدام هذا السلاح برغم أن اتفاقية جنيف تمنع استخدام الأسلحة التي تحدث «إصابات زائدة وغير ضرورية»، كما تنص على معاقبة من يتسبب في إحداث «إصابات جسدية وصحية خطيرة عند المدنيين». وينص البند ١٤٧/ الجزء الرابع من اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص والمدنيين وقت الحرب، على «محاكمة الأشخاص المتورطين في انتهاك الاتفاقية «بالإقدام على أيٍّ من الأفعال الآتية، بحق أشخاص أو ممتلكات محمية

(٢٩) خالد الحلبي، ومحمد أبو شرخ، «أسلحة قمع الانتفاضة أسلحة محرمة دوليًّا»، **العرب نيوز**، http://www.alarabnews.com/alshaab/2004/07-05-2004/p7.htm

بموجب هذه الاتفاقية؛ وهي: القتل العمد، والتعذيب، والمعاملة اللا إنسانية، بما في ذلك التجارب البيولوجية، والتسبب بالمعاناة أو الإصابات الجسدية أو الصحية الخطيرة». [٣٠]

٧- قتل الأسرى المصريين

عن طريق الصدفة وبعد ثلاثين سنة على المجزرة يفضح التاريخ «شارون» باعتباره الآمر بقتل مجموعة من الأسرى المصريين في حرب (١٩٦٧). ولقد طال الزمن لافتضاح هذه الجريمة؛ لأن المصريين كانوا يعتبرون هؤلاء الأسرى في عداد الموتى. وجاء الكشف عن وجودهم وتصفيتهم في مجزرة جماعية على لسان ضابط احتياط إسرائيلي من المشاركين في المجزرة، وهو ما أسهم بدور كبير في زيادة الحاجز النفسي بين المصريين والإسرائيليين.

٨- العنصرية والعدوانية كمقومات للمجتمع الإسرائيلي

من أكثر ما يتميز به الاحتلال الإسرائيلي النزعة العنصرية، ليس في الحرب فقط بل في الأوضاع العادية؛ حيث يكتوي المواطن الفلسطيني بنيران العنصرية الإسرائيلية التي تستهدفه في تفاصيل حياته العامة والخاصة، وتصادر حرياته المكفولة دوليًّا وإنسانيًّا.

إن الثقافة التوراتية العنصرية هي التي أوجدت العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية تجاه الآخر، ومنهم الفلسطينيون والعرب، فمن التراث الديني اليهودي (التوراة والتلمود) استلهموا الروح العدوانية التي دفعتهم لارتكاب المجازر البشعة، ثم استلهموا تقاليد الروح العدوانية في الفكر والسلوك الصهيوني القديم، فالصهيونية فكر وسلوك موبوء بالتعصب العنصري والديني، ولذلك أصبح الإجرام والإرهاب من الأدوات التي يتوسل

(٣٠) «اتفاقية جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب»، **فهرس حقوق الإنسان في الدول العربية**، http://www.arabhumanrights.org/publications/un/geneva4-49a.html#part2

بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهودي المعاصر، وقد جعلت الصهيونية من الشعب الفلسطيني ميدانًا فسيحًا لتجريب العقلية اليهودية، وتخريج خبراء الإرهاب والمجازر.(٣١)

إن وحشية الجيش الإسرائيلي ليست إفرازًا لتعليمات عسكرية من قادة الحرب بل من مجتمع يعج بالعنصرية والكراهية والفوقية والعدوانية، ومن عالم متحضر ينصاع للقوي ويبرر للجلاد جرائمه حتى يقتل الضحية ثم يحاكمها. ورغم ذلك تلقت إسرائيل هزيمة أخلاقية نكراء، وفضحت حرب غزة الشعارات التي تروجها في العالم زورًا وبهتانًا، وبينت أن إسرائيل سرعان ما تفشل وترسب عندما يتطلب الموقف والاختبار وحتى الحرب «مبادئ أخلاقية و معايير إنسانية واحترامًا لأبسط القوانين الدولية».

كثيرًا ما نجحت إسرائيل وهي الدولة المعتدية التي تمثل المحتل الغاصب في تصوير وتسويق نفسها على أنها ضحية أمام العالم؛ لاستقطاب اهتمامه واستدرار عطفه وكسب تعاطفه وتأييده العسكري والاقتصادي والإعلامي والسياسي، ولكن سرعان ما تنكشف لتظهر مكنونات الشخصية اليهودية «التي تعاني أمراضًا نفسية مستعصية»، وهو ما يستدعي ضرورة استثمار هذا السقوط الأخلاقي المهين للكيان المحتل لملاحقته ومحاكمة قادته بصفتهم مرتكبي أبشع جرائم الإنسانية في العصر الحديث.

٩- الصورة النمطية للعربي لدى الإسرائيلي

لقد مضى أكثر من نصف قرن على قيام الكيان الصهيوني وأكثر من قرن على بداية السعي لتأسيسه، وما زالت صورة العربي في الثقافة والتربية اليهودية واحدة لا يرسم معالمها إلا ألوان «قاتمة» ولا تعرف سوى مفردات الكراهية والعداء.

(٣١) صالح حسين الرقب، «سر وحشية المجازر اليهودية المتواصلة في فلسطين»، **موقع الدكتور صالح الرقب**، http://www.drsregeb.com/index.php?action=detail&nid=3

إن السياسة التربوية الإسرائيلية تقوم أساسًا على مرتكزات دينية خاصة تدعو إلى ربط الإنسان اليهودي بأرض فلسطين باعتبارها أرض الشعب المختار. ومن ثم فلم يكن ارتباط اليهودي بالأرض الفلسطينية ارتباطًا عاديًّا، بل من صميم العقيدة اليهودية، وهو ما تسبب في إخراج جيل متعصب يشعر بالاستعلاء على بقية الشعوب ومتشبث بالأرض، وهو ما يساهم بدوره فى تغذية مشاعر الحاجز النفسي والفجوة الموجودة بين الطرفين.(٣٢)

إن الحركة الصهيونية تعتقد أن اليهود مميزون عن سائر البشر، وأن هذا التمييز ليس من صنع البشر، بل هو من صنع الرب، وأن على الغوييم «الأغيار» أن يخضعوا في النهاية لإرادة ورغبة الخالق. كما أن وجود اليهود في فلسطين هو حق لهم، بناءً على هبة من الرب. وهذا يعني حسب معتقداتهم الدينية، أن على الآخرين الأقل حضارة أن يعملوا على تنفيذ الإرادة الإلهية، بخدمة اليهود وأهدافهم. وهذا الموقف موجّه إلى كل يهودي. وأما العرب، فإن الموقف الصهيوني والإسرائيلي ضدهم، يتضاعف في تطرفه وعدوانيته، إن الصهيونية تعد العربي ممثلاً للأغيار في الماضي والحاضر، وأن الأغيار وُصِفوا في الأدبيات الصهيونية بأنهم «ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون أزليون للسامية».(٣٣)

ويعود سبب ذلك إلى أن العرب يشكلون النقيض الرئيسي للمخطط الصهيوني في فلسطين، ولهذا فقد بنى الفكر الصهيوني والإسرائيلي موقفًا متشددًا وعدوانيًّا من العرب؛ حيث قام بتشويه سمعة العرب بشتى الوسائل؛ من أجل خلق حقائق إسرائيلية ودولية تخدم مصالح إسرائيل. وفرض الصراع الإسرائيلي نفسه على المفكرين الإسرائيليين، الذين كتبوا عن الشخصية العربية، بطريقة غير موضوعية، مستندين أيضًا إلى المأثور الديني والتاريخي

(٣٢) إبراهيم نصر الدين دبيكي، **صورة المجتمع العربي في مناهج تدريس اللغة العربية في إسرائيل** (د.م.: كلية اللغات والترجمة. جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤): ١٨.

(٣٣) عبد الوهاب المسرى، **الأيدلوجية الصهيونية**، سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٠، ٦١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٨): ١٧٩-١٨٥

في الكتب المقدسة اليهودية. ولم يكن الفكر الصهيوني فقط هو الذي شوه صورة العرب، بل إن السياسيين وزعماء الحركة الصهيونية وإسرائيل لهم آراء عنصرية وعدوانية أيضًا ضد العرب، مبنية على ما جاء في التوراة والتلمود ضد من هو غير يهودي.(٣٤)

إن الصورة الذاتية للإسرائيلي وصورته للآخر العربي تسهم في تغذية المشاعر برفض الآخر أو حتى الحوار معه، فيصور الإسرائيلي العرب على أنهم أمة جاهلة ومتخلفة، وأن ذلك يعود إلى طبيعة الإنسان العربي نفسه، غير القابل للتطور؛ حيث يميل إلى فردية طاغية وعدوانية «يكره أخاه ويعتدي على ابن عمه ويسرق جيرانه». ومنذ بداية دعوة زعماء الحركة الصهيونية، يهود أوروبا إلى الهجرة إلى فلسطين، كان هناك موقف معادٍ للعرب عند معظم المفكرين، فلقد حاولوا تصوير فلسطين، على أساس أنها أرض صحراء لا يقطنها أحد سوى البدو الرحَّل والمتخلفين، غير المرتبطين بالأرض.(٣٥)

واستمر الفكر الصهيوني بعد قيام إسرائيل، في تشويه صورة العرب من خلال وسائل الإعلام الإسرائيلي والأدباء والمفكرين ومناهج التعليم في المدارس الإسرائيلية. واستغلت إسرائيل وجود العرب الفلسطينيين في إسرائيل، الذين تعاملهم على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثالثة، في بث دعاية عنصرية ضدهم. كذلك ركز الفكر الإسرائيلي على تشويه صورة العرب؛ من أجل المحافظة على صورة اليهودي المثالي والمتحضر الذي لا يقهر، المحاط بالعرب «الجبناء، والمتخلفين، الذين يريدون رمي اليهود في البحر. «ومثل هذه الدعاية وجهتها إسرائيل ضد العرب في الخارج؛ لكي تكسب الرأي العام الدولي، وفي الداخل؛ لكي تحافظ على تفوق العنصر اليهودي المتمدن ضد العرب. (٣٦)

---

(٣٤) Theodore Herzel, **The Jewish State, An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question** (London: 1934): 34.

(٣٥) تيودور هرتزل، **يوميات هرتزل** (بيروت: مركز الأبحاث م.ت.ف، ١٩٦٨): ٧٨.

(٣٦) أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي** (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٧): ٣١.

واستمرارًا لهذه السياسة فقد امتلأت الكتب المدرسية التي تشرف عليها وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية بالموضوعات المختلفة التي تشوه صورة العربي عند الطلاب الإسرائيليين، وتحرضهم على العرب بطريقة عنصرية واضحة. ومن المعروف أن النظام التعليمي في أية دولة يسعى إلى تنشئة سياسية وتربوية وثقافية لمواطنيه وفقًا لمعتقداته وأيدلوجيته. وهذا ما ينطبق على المناهج التعليمية في إسرائيل؛ إذ يسعى المسئولون الإسرائيليون إلى تكريس مفاهيم أساسية عن العرب، وإلى تفوق الإسرائيليين. ولهذا فقد تناولت المناهج التعليمية العرب والمسلمين في الماضي والحاضر على أساس أنهم متخلفون، ويعيشون حياة البداوة، وأنهم قطاع طرق، يهاجمون بعضهم ويتقاتلون دائما فيما بينهم، لا يحترمون العهود ولا المواثيق.[٣٧]

١٠- الصورة النمطية للإسرائيلي لدى العربي

هناك عدد من الأفكار النمطية التي يتمسك بها المصري نحو الإسرائيلي، منها الثقة بالنفس حتى الغرور، والشعور بالتعالي على الآخرين، والسعي الدائم للاحتماء بالأقوى، والبرود العاطفي، والانتهازية، والسخط، والشك، والخوف، والمغامرة، والإحساس بالضياع، والتمرد على الواقع الاجتماعي، والغدر، وعدم احترام المواثيق الدولية، والعدوان بهدف الاستيلاء على الأرض، والإيقاع بين الأفراد والأمم والشعوب، وانعدام الأخلاق، والاعتداء على المقدسات، والشك في الآخرين، والتنكر للآخرين.[٣٨]

إن الأفكار النمطية عن الإسرائيليين تتصف بالسلبية الشديدة؛ وهي صورة سلبية مستمرة عبر فترة طويلة. كما أن توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل لم ينجم عنها تغير جوهري في

(٣٧) عمرو حسين، «صورة العربي في المناهج الإسرائيلية»، **مجلة ضد التمييز**، العدد ٧ (يوليو ٢٠٠٥): ٢٢.
(٣٨) رشاد الشامي، **الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس** (القاهرة: كتاب الهلال ١٩٩٢): ٣٧٩.

طبيعة الأفكار النمطية السلبية عن الإسرائيليين لدى المصريين. ويرجع سبب استمرار الأفكار النمطية السلبية عن الإسرائيليين لدى المصريين، برغم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية التي تم توقيعها في ٢٦ مارس ١٩٧٩، إلى الأفعال التي يقوم بها الإسرائيليون ضد العرب والفلسطينيين؛ حيث تعمل على ترسيخ الصورة السلبية عن الإسرائيليين، وهو ما يؤدى إلى ازدياد الحاجز النفسي والتمسك بمجموعة الأفكار النمطية.(٣٩)

إن المعادلة التي تحكم المنطق هي أن التنافر يولد التعصب، وأن المقاطعة تخلق التطرف، وهي معادلة لا تتعارض بالضرورة مع كون الأبعاد النفسية للصراع متغيرًا تابعًا لمتغير مستقل هو الأبعاد الواقعية له، وأن الاقتصار على المعالجة السيكولوجية للصراع يستند إلى تشخيص قاصر لطبيعته، إلا أن التحفظ الأساسي على فكرة اللجوء إلى علم النفس في ظل الصراع العربي الإسرائيلي – ولو بالتكامل مع الوسائل الأخرى لمعالجة الصراع – إنما ينبع من إمكانية استخدام الأدوات النفسية في التأثير المنظم على أحد الطرفين لصالح الطرف الآخر من خلال القنوات المفتوحة التي يتيحها التعامل المباشر. وبذلك تتحول ثنائية الحوار إلى إطار شكلي لحركة أحادية الاتجاه تصل بالصراع النفسي إلى تحقيق أهداف الطرف الأقدر على إدارته لصالحه، وليس إلى الصيغة التوفيقية المثلى بين منطقتين مختلفتين.

كما أن عدم قابلية الظواهر السياسية للاقتطاع والعزل المعملي يفرض التحفظ المنهجي في محاولات التحليل النفسي لها.. فطرفا الصراع – أي صراع – قد لا يكونان متساويين في درجة العدوانية على سبيل المثال. وحيث إن المحلل السيكولوجي قد لا يستطيع أن يعكس بدقة مستويات التفاوت الواقعي في هذا الصدد على مرايا الدراسة البحثية، فإن محاذير الإخفاق في الوصول إلى نتائج صائبة بهذا الخصوص تبدو واضحة. وبصفة

(٣٩) طه المستكاوي، **صورة الذات والآخر بين العرب وإسرائيل** (الجيزة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧): ٧٥.

عامة، فإن اتجاه الولاء ومدى الوعي يؤثران إلى حدٍّ بعيد على مسار مثل هذه التحليلات التي يمكن أن تستخدم في التأثير المعنوي، كما يمكن أن تستغل ساترًا دعائيًّا. ويرتبط ذلك بمحاولات تغيير القيم النسبية لعناصر الصراع من خلال إلقاء العناصر النفسية على العناصر الواقعية بشكل يحيل الصراع إلى مفاهيم عاطفية مثل الرغبة في الاقتصاص لكرامة نالت منها الهزيمة، وذلك على أساس أن مثل هذا التبسيط من شأنه أن ييسر مهمة الصراع. وهو ما يتوقف على مدى الاستجابة المتبادلة بين الطرفين بهذا الخصوص.(٤٠)

حقًّا لقد بدأنا حديثنا عن الخطر الصهيوني قبل قيام دولة إسرائيل، وما زال مستمرًّا حتى اليوم. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الدول العربية لم تتفق على موضوع قط قدر اتفاقها على خطورة إسرائيل والصهيونية، حتى إن كلمة «تحرير فلسطين» قد تحولت إلى أيقونة تلجأ إليها العديد من السلطات العربية لتبرير إحكام قبضتها على شعوبها. كما تلجأ إليها العديد من التنظيمات المعارضة لحشد صفوف المعارضين للسلطة، وما إن ينهار نظام عربي إلا ويتضمن البيان الأول للنظام الجديد بشكل مباشر أو غير مباشر وعدًا بتحرير فلسطين، وتخوينًا للنظام السابق الذي تهاون في مواجهة العدو الصهيوني.(٤١)

(٤٠) قابيل، «الصراع النفسي في العلاقات المصرية الإسرائيلية»: ٦٩–٧٠.

(٤١) قدري حفني، «الجوانب النفسية الاجتماعية للصراع العربي الإسرائيلي»، **برنامج لجنة علم النفس** (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٤ فبراير ٢٠٠٩).

الوسائل الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي

أوجدت ولادة إسرائيل في المنطقة العربية صدمة نفسية هائلة على صعيد الوعي الجماعي العربي. فلم يكن بمقدور الإنسان العربي أن يقبل بوجود دولة إسرائيل بأية مقاربة كانت، فهو لا يؤمن بوعد التوراة لشعب الله المختار، كما أنه لم يكن طرفًا في مشروع الإبادة النازية لليهود[٤٢]. تعتمد نظرية الاستقراء التاريخي، لدى تطبيقها في مجال المستقبليات على مبدأ الراهنية، الذي يقتضي أخذ متغيرات الراهن في الحسبان للوصول إلى توقع أكثر دقة حول الطريقة أو النمط الذي سيتكرر الحدث عبره. ولعل أبرز المتغيرات الراهنة هي أن اليهود لم يعودوا أقليات تحتجز نفسها في حارة اليهود (الغيتو)؛ بحيث تتوزع مصالحها بحسب أجواء وظروف المجتمعات التي تقع فيها الحارة. فقد تجمعت هذه الأقليات في دولة سميت بإسرائيل. وبالتالي فإن الراهن مختلف عن الماضي في نواحٍ عديدة؛ أهمها أن يهود إسرائيل باتوا يملكون قوة عملية لمواجهة عقدة المذبحة. فتطور هذه العقدة وأمراضها الخطيرة جعل اليهود لا يكتفون بملكية القوة، والمبالغة في أدواتها، بل تخطوا ذلك إلى سلوك عدواني قهري يجعلهم عاجزين عن الشعور بالأمان ما لم يؤكدوا قدرتهم على الاعتداء على الآخر. ومن ثم أتت القيادة الإسرائيلية مجبرة على ارتكاب أخطاء إستراتيجية عديدة

(٤٢) هيثم مناع، «الصراع العربي الإسرائيلي وتطور الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم العربي»، **هيثم مناع. نت**، http://www.haythammanna.net/lectures/conflit%20arabe.htm كتبت هذه المحاضرة في ١٩٩٧/٩/١٦، وقد تم إضافة ما يؤكد توجهها من أحداث تبعت ذلك.

تحت ضغط الجمهور المذعور الذي لا يمكن طمأنته إلا عبر إثبات القدرة الإسرائيلية على العدوان، حتى بات بالإمكان الحديث عن تطور عقدة المذابح إلى جنون الاضطهاد.(٤٣)

إن التطبيع بالنسبة لإسرائيل لا يعني مجرد إقامة علاقات تجارية أو دبلوماسية، وإنما هو مراجعة لمفاهيم الصراع. إن الاتفاقيات الدولية توفر لإسرائيل اعترافًا قانونيًّا بسيادتها كدولة، ولكن هذا الاعتراف لا يوفر لها شرعية وجودية عند الشعوب العربية، وهذا ما يؤكده رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق شارون من خلال قوله: إن «الاتفاقيات التي نوقعها مع الدول العربية لا تساوي الورق الذي تُكتب عليه، وترمي إسرائيل بكل ثقلها من أجل التحول إلى كيان طبيعي في المحيط العربي. فرغم ما تملكه من أسباب القوة، فما زال ينظر إليها باعتبارها كيانًا ماديًّا وثقافيًّا غريبًا عن الهوية الحضارية للمنطقة».(٤٤)

إن الهدف الأساسي من كسر الحاجز النفسي بين العرب وإسرائيل وجوهره هو إحداث تغيير على الجانب العربي والإسلامي، على أن يبدأ هذا التغيير بالتسليم بوجود إسرائيل كدولة في المنطقة، ويمتد إلى تقييد قدرات العالم العربي العسكرية، وتغيير معتقداته السياسية وإعادة صياغة شبكة علاقاته، إضافة إلى تحقيق مطالب أمنية وإقليمية وصولاً إلى تغيير المواقف تجاه هذا الكيان بصورة جذرية.

وبقدر ما يبدو التطبيع في ذاته هدفًا من أهداف الإستراتيجية الصهيونية لتحقيق الأهداف الصهيونية في المنطقة فإنه أيضًا يعد أداة من أدواتها في العمل، يتكامل مع أدوات العمل الأخرى من عسكرية ودبلوماسية في محاولة لكسر الحاجز النفسي بين الإسرائيليين

(٤٣) محمد أحمد النابلسي، **النفس المغلولة: سيكولوجية السياسة الإسرائيلية** (طرابلس: مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية، ٢٠٠١): ٢١– ٢٢.

(٤٤) مأمون سويدان، انعكاسات خطة الارتباط أحادية الجانب على عملية التطبيع، ورشة عمل، مركز التخطيط الفلسطيني (٢٠٠٥/١١/١٦).

والعرب. فالعمل العسكري مهما كانت طاقاته يبقى عاجزًا عن تحقيق جزء مهم من الأهداف الحيوية للحركة الصهيونية مثل دمج إسرائيل في المنطقة، وتلبية احتياجاتها المتزايدة لمصادر المياه، ودعم نموها الاقتصادي وهذا ما تتكفل به الإستراتيجية الإسرائيلية للتطبيع. (٤٥)

إن الخطر العربي بالنسبة لإسرائيل له مصادر أساسية؛ وهي: تيار القومية العربية بقيادة مصر، دول عربية مجاورة لإسرائيل «مصر وسوريا»، فلسطينيون منظمون سياسيًّا ومسلحون.(٤٦)

ويمكننا القول إن الخطط الإسرائيلية نجحت بعض الشيء، فبعد توقيع الاتفاقية المصرية – الإسرائيلية تراجعت شعارات القومية، وزال خطر الدول المجاورة بخروج أكبر دولة عربية من دائرة الصراع.

إن المضمون الإستراتيجي للسلام هو إحداث تغير على الجانب العربي يبدأ بضرورة تقبل إسرائيل، ولا يكفي قبول إسرائيل كدولة، بل يتعين قبولها بأساسها الأيديولوجي، ومن ثم يأتي دور الوسائل الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي بين الشعوب وتقبل إسرائيل في المنطقة.

تلجأ إسرائيل إلى عدد من الوسائل في محاولة لكسر الحاجز النفسي بين الشعوب العربية والإسرائيليين، ومن ثم يمكن تقسيم هذه الوسائل إلى وسائل سياسية، واقتصادية، وثقافية.

(٤٥) عفاف الحكيم، «التطبيع: مخاطره، نتائجه ومقاومته»، **جماعة العدل والإحسان**، http://www.aljamaa.net/ar/document/2316.shtml

(٤٦) كما يقول المستشار السياسي والجنرال الإسرائيلي «أموسى برلموتر»، انظر: مجدي أحمد حسين، «من كامب ديفيد إلى مدريد»، **جريدة الشعب** ٢٩(أغسطس ٢٠١١)، http://elshaab.org/thread.php?ID=4778

أولاً: الوسائل السياسية الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي

الوسائل السياسية هي البوابة الرئيسة التي من خلالها يمكن كسر وتخطي الحواجز النفسية. إنه يشكل التأشيرة الرسمية أو الإذن المسبق لإقامة مختلف أنواع العلاقات؛ لأنه ممارسة سياسية على المستويات الرسمية العليا والتي يقوم بها الحاكم أو المسئول الأول والحكومة وأعضاؤها والأجهزة الأمنية وغيرها. إنه الممارسة الرسمية التي كان يقوم عليها معظم الأنظمة العربية علنًا، وكان يحميها ويدفع باتجاهها ويجند القوى الممكنة في سبيل حمايتها واستمرارها.

إن هدف القيادات العربية إقامة أو العمل على إقامة علاقات اعتيادية على المستوى الرسمي مع العدو بخاصة على مستوى الحكام والقادة والرؤساء والملوك، وبما يملكه هذا المستوى من إمكانات ووسائل لنشر هذه العلاقات على كافة مستويات النشاط العام. وهذا يتم على أيدي القيادات السياسية، أي القيادات التي تمثل الناس وتدير المؤسسات وتسن القوانين وتتبنى سياسات داخلية وخارجية تؤثر مباشرة في أوضاع الناس المختلفة، وتؤثر في مواقفهم الذهنية وفي سلوكياتهم وطرق تعاملهم مع المستجدات المادية والمعنوية.

إن تلك الوسائل المتبعة في محاولة لكسر الحاجز النفسي لا تنطوي على مجرد إقامة علاقات اعتيادية معها كما هي العلاقات الاعتيادية بين دول العالم غير المتنازعة، وإنما يدخل في عمق الذات العربية والإسلامية، وله انعكاسات ذاتية وجماعية ذات صبغة حضارية وتاريخية. إنها ليست وسائل من أجل إقامة علاقات لم تكن موجودة أصلاً، وإنما بمعنى مراجعة تاريخ طويل وإعادة النظر في أبعاد تاريخية وحضارية ودينية. وهو لا ينطوي على

مجرد مصالح متبادلة أو مشتركة تعود بمنافع مادية على الطرفين، وإنما يشمل الوعي بالذات والقراءة العربية للتاريخ والهوية والأصول.

إن الوسائل السياسية المتبعة لكسر الحاجز النفسي لا تهدف بالأساس إلى مجرد إقامة علاقات تجارية أو مفوضيات أو سفارات، وإنما تهدف إلى مراجعة مفاهيم الصراع وفهم التاريخ والأسس الدينية..إلخ. أي يجب أن تكون عملية قلب جذرية للنظرة العربية والإسلامية تجاه إسرائيل واليهود؛ بحيث ينشأ عربي مسلم جديد بمفاهيم جديدة تنسف كل ما سبق بخلفياته وحيثياته. وإن لم يكن التطبيع كذلك فإن جذور بروز الصراع من جديد تبقى كامنة حتى يحين وقت انبثاقها. فإذا كان للصراع أن يُدفن نهائيًّا فإنه لابد من نسف الأصول والمنابت وأسس تشكيل الشخصية العربية الإسلامية. وعليه فإن التطبيع يجب أن يكون منهاجًا حياتيًّا جديدًا ومبرمجًا بطريقة مؤثرة تخلق قيمًا تربوية وأخلاقية جديدة متناسبة مع المرحلة وتشكل أساس المستقبل.

وحتى تكون إسرائيل مقبولة باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من المنطقة ومعترفًا بها هكذا، فإنه لابد من توفر القبول الشعبي بها. لم يكن الأمر سهلاً فلابد من تحقيق اختراقات تجعل الاحتكاك بينها وبين مختلف فئات الشعب العربي ممكنًا. وفي ظل العداء الواسع لإسرائيل في الوطن العربي لم تكن وسائل الإقناع العادية متوفرة، ولم يكن أمامها سوى وسائل الاتفاقيات والمعاهدات.

من ثم اتخذت إسرائيل مدخل المعاهدات والاتفاقيات؛ من أجل السيطرة على العالم العربي سياسيًّا، والعمل على كسر الحاجز النفسي. ونعرض فيما يلي بإيجاز لهذه الاتفاقيات بالقدر الذي يخدم حديثنا عن الوسائل السياسية:

١- معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل

تعد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل أول معاهدة توقعها دولة عربية مع الكيان الصهيوني والذي شهدت قبل توقيعها سجالات عديدة وجولات ولقاءات للرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» والرئيس الراحل السادات. وقد سميت على إثرها هذه المداولات بالمكوكية، ونسبت إليها أيضًا دبلوماسية الهاتف، وعلى إثرها قاطعت الدول العربية مصر ونُقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس.

فلم يمضِ على حرب أكتوبر أربع سنوات حتى زار الرئيس المصري أنور السادات في ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ القدس، في رحلة استفزت العالم العربي والإسلامي. وفي ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وقَّع الكيان الصهيوني والحكومة المصرية معاهدة السلام مع إسرائيل وعلى إثرها تم إنهاء الصراع بينهما، وتأسست علاقات طبيعية كاملة.(٤٧)

وبموجب ذلك رفع علم الكيان الصهيوني في فبراير ١٩٨٠ على سفارة العدو في القاهرة. وقد ظلت هذه المعاهدة تحكم سياسة النظام المصري على الدوام. ولا أدل على ذلك من إحكام الحصار على قطاع غزة، واستهداف رجال المقاومة، وممارسة الضغوط على قوى المقاومة للقبول بشروط الرباعية الدولية.

(٤٧) حيث نصت الفقرة الثالثة من المادة الأولى على: (عند إتمام الانسحاب المرحلي المنصوص عليه في الملحق الأول يقيم الطرفان علاقات طبيعية وودية بينهما)، كما نصت الفقرة (٣) من المادة الثالثة على: (يتفق الطرفان على أن العلاقات التطبيعية التي ستقام بينهما ستضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية، وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة ضد حرية انتقال الأفراد والسلع). نص معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل واتفاق الحكم الذاتي في الضفة والقطاع، القاهرة، ١٧ سبتمبر، ١٩٧٨، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات. http://www.malaf.info/?page=show_details&Id=112&table=ar_documents&CatId=5"

٢- اتفاقية أوسلو

إذا كانت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل تشكِّل الاختراق الأول في جدار الصمود العربي، فإن اتفاقية أوسلو وما تلاها من اتفاقيات القاهرة وزاي يفر (واي بلانتيشن)، تشكل الفصل الأخطر على القضية الفلسطينية.

فعلى الرغم من ثقل مصر التاريخي والبشري، ودورها في الصراع مع العدو الصهيوني، فإن المعاهدة التي وقَّعها مع الكيان الصهيوني قوبلت بالرفض والإدانة الشعبية والرسمية، وتم نقل مقر الجامعة العربية وأمانتها العامة من مصر. ولكن اتفاقية أوسلو فتحت الباب واسعًا أمام كل المتطلعين لإنهاء الصراع مع العدو الصهيوني، فمنظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني بموجب قرارات القمة العربية، وإنهاء صراعها مع العدو يعني خروج النظام العربي الرسمي من المعركة، ونفض يديه من القضية.

فبعد مفاوضات متواصلة سرية وعلنية تم التوقيع بالأحرف الأولى في أوسلو في ١٩٩٣/٨/١٩ على اتفاق إعلان المبادئ بشأن ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني، ووقّع عليه رسميًّا في واشنطن في ١٩٩٣/٩/١٣. وقد جاء الاتفاق في (١٧) مادة و(٤) ملاحق ومحضر اجتماع. وقد شكّل هذا الاتفاق وما تلاه من اتفاقات تحالفًا بين المنظمة والكيان الصهيوني. ومن أولى أولوياته التعاون الأمني، ومحاربة ما يسمى بالإرهاب وأعداء السلام، لقاء حكم ذاتي فلسطيني داخل الدولة العبرية ذات السيادة، في حين تم تأجيل القضايا الرئيسية: القدس، وحق العودة، والحدود، والمياه، إلى مرحلة لم تأت على الرغم من مرور فترة طويلة على الاتفاقية.(٤٨)

(٤٨) «اتفاقية أوسلو، إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكومة الذاتية الفلسطينية ١٩٩٣/٩/١٣»، **البريج: قضاء القدس**، .http://www.alburayj.com/p%20oslo%201.htm

وقد رحبت الدوائر الصهيونية بهذا الاتفاق، واعتبرته مؤشرًا على تصفية القضية الفلسطينية، وتحويل منظمة التحرير إلى ذراع سياسي ومؤسسة للفلسطينيين تعمل من داخل المناطق تحت بصر الكيان الصهيوني.

وبهذه الاتفاقية حصل العدو الصهيوني على الشرعية الفلسطينية، بعد أن حصل في كامب ديفيد على الشرعية العربية، وفي عام ١٩٤٨ على الشرعية الدولية، وبهذا أسست الاتفاقية لإنهاء حالة العداء والصراع الذي استمر لعدة عقود، وصولاً إلى مصالحة تاريخية، ووفرت للاحتلال احتلالاً نظيفًا لا نظير له، وأراحته من مسئوليته باعتباره دولة احتلال، تترتب عليها مسئوليات تجاه الشعب الواقع تحت الاحتلال، وأخلت العرب من المسئولية عن القضية، ونقلت الصراع إلى الداخل الفلسطيني، وأسست لحكم ذاتي مرتبط بدولة أخرى فيدراليًا أو كونفدراليًا، وفتحت الباب أمام التمدد في البلاد العربية والإسلامية.

٣- المبادرة العربية للسلام ٢٠٠٢

إذا كانت اتفاقيات كامب ديفيد، وأوسلو، ووادي عربة اتفاقيات منفردة، فإن ما سمّي بالمبادرة العربية للسلام، التي أقرها مؤتمر القمة العربية الرابعة عشرة تعتبر إجماعًا عربيًا رسميًا على إنهاء القضية الفلسطينية، لقاء دولة فلسطينية على حدود الرابع من يونية عام ٦٧، متجاهلة الأهداف التي ضحى الفلسطينيون والعرب من أجلها. ومع هوان هذه المبادرة وتفريطها بأربعة أخماس فلسطين، بما في ذلك حق العودة الذي صيغت له عبارة خادعة «حل عادل لقضية اللاجئين في ضوء القرارات الدولية» فإنها قوبلت بالرفض والاستخفاف من الكيان الصهيوني، الذي أغرته قوته، وهزال النظام العربي الرسمي، وتهافته على الحلول،

وحملت العدو على مزيد من التشدد، والمضي قدمًا في تحقيق أهدافه. فكل التنازلات العربية والحوافز الأمريكية لم تحمله على مجرد القبول بوقف الاستيطان مدة تسعين يومًا.(٤٩)

في هذا الصدد يمكننا القول إن إسرائيل اعتمدت على آليتين، في بث اليأس والإحباط؛ وهما صنع قيادات عربية قابلة للهزيمة وآلية عسكرية تهيمن بها على المنطقة. وبدورهم اعتمد القادة العرب على آليتين؛ وهما التمشي اللفظي مع تطلعات الجماهير وتأهيلها للتفتت والهزائم من خلال سياساتهم الداخلية والخارجية. تكامل الدور الإسرائيلي مع الدور القيادي العربي، وانتهت الأوضاع إلى حيث أرادت إسرائيل وهو الجلوس على طاولة المفاوضات لصنع سلام معها يقوم على الاعتراف المتبادل وفتح الأبواب أمام العلاقات الاعتيادية.(٥٠)

ثانيًا: الوسائل الاقتصادية الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي

لكي تكتمل حلقات طمس الحقائق وخلق أوضاع مناسبة لأمن إسرائيل وتوسعها وبسط هيمنتها على المنطقة، تقوم حملة واسعة من الوعود بالثراء والرخاء الاقتصادي. فلا يكفي إجبار الناس على التنكر لأنفسهم وإلغاء ذاتهم، وإنما من المهم تقديم الحوافز لذلك. يقف الحديث عن التطوير الاقتصادي على رأس هذه الحوافز لما فيه من قدرة على لفت الأنظار وإثارة الاهتمام. وقد تم تجربة بريق تحسين ظروف المعيشة في مصر لتزيين اتفاقات كامب ديفيد. وعد الرئيس السادات شعبه بالنعيم والخروج من مأزق الفقر، وعاونته في ذلك

(٤٩) إبراهيم علوش، «مبادرة السلام العربية تفتح أبواب التطبيع والتوطين على مصراعيها»، **الصوت الحر العربي**، http://www.freearabvoice.org/arabi/maqalat/MobadretAlSalamTafta7AbwabAlTatbee3.htm

(٥٠) عبد الستار قاسم، «تطبيع المفاهيم»، **مجلة عصر الفكر** (يونية ٢٠١٠): ١٧-٢٠.

الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، حتى ظن شعب مصر أن الصلح مع إسرائيل عبارة عن مفتاح لحل كل مشكلاته.

ويمكن إجمال الأهداف الاقتصادية الإسرائيلية في المنطقة العربية فيما يلي:

١) إلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية وجعل البلاد العربية سوقًا للمنتجات الإسرائيلية.

٢) توفير سبل الاستقرار والحياة والنماء والازدهار للاقتصاد الإسرائيلي.

٣) تقوية الوضع الاقتصادي الإسرائيلي بتعامل جميع شركات العالم معه وحصوله على المواد الخام من البلدان العربية القريبة وإعادة تصديرها مصنعة إليها.

٤) استثمار الطاقة النفطية العربية لصالح الكيان الصهيوني.

٥) ترويج الأسلحة الإسرائيلية في البلدان العربية.

٦) استثمار الثروة المائية العربية لصالح إسرائيل وحلفائها.

٧) استغلال الأيدي العاملة العربية الرخيصة.

٨) التغلغل الاقتصادي في العالم العربي وتخريب اقتصادياته.

٩) إقامة شركات ومشروعات اقتصادية وسياحية مشتركة لضرب الاقتصاد العربي والإسلامي.[٥١]

(٥١) مجدي قرقر، «ثقافة المقاطعة ضرورة عملية وواجب شرعي في مواجهة التطبيع»، ورقة عمل في **مؤتمر الأحزاب العربية نحو إستراتيجية شعبية للمقاطعة العربية دمشق** (٢٥ – ٢٧ يناير ٢٠٠٣).

ثالثًا: الوسائل الثقافية الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي

تعتبر الوسائل الثقافية الإسرائيلية من أخطر الوسائل؛ نظرًا لحساسيتها، ولهذا تحظى بإصرار وإلحاح إسرائيلي. ويدرك الإسرائيليون الفائدة الكبرى من وراء انتشار الأفكار والأيدولوجيا الصهيونية في البلاد العربية.

تدرك إسرائيل أنها إذا نجحت يومًا في تفوق سلاحها، فإن هذا النجاح لا يتحول إلى نصر دائم على الأرض، إلا إذا ساندته ثقافيًّا ونفسيًّا، كانت الثقافة في المرتبة الأولى عند الصهيونية، فقبل أن تقيم دولَتها العدوانية على أرض فلسطين العربية، أسست مرتكزات لثقافتها المكونة من الأساطير والعنصرية والحقد على الآخرين، زرعت هذه الثقافة في عقل اليهودي؛ كي يتحول إلى صهيوني بامتياز.(٥٢)

إن وسائل الاختراق الصهيوني الثقافية من أخطر الوسائل من أجل كسر الحاجز النفسي، فقد يكون أخطر نتائج اتفاقيات التسوية بين النظام العربي الرسمي وإسرائيل؛ حيث إن الهدف النهائي لهذا يتركز في محاور رئيسة هامة، أبرزها:

١) الوصول إلى عقل المواطن العربي ووجدانه.
٢) ضرب المناعة النفسية لديه.

(٥٢) ففي عام ١٩٢٠ أنشئ أول معهد صهيوني في حيفا يهتم بدراسة الإنسان العربي من الداخل، والمشاعر والأخلاق، والقيم الروحية، والقيم النفسية والجمالية، والفلسفية، والقيم القومية والوطنية، وضرورة العمل على تشويهها، ومن ثم قتلها بأساليب كثيرة. ولا يزال هذا المعهد قائمًا حتى الآن، وهو الذي يشرف على تنفيذ السياسة الصهيونية في الإعلان والثقافة والجيش، ويقود الحرب النفسية على العرب.
لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى: فوزي معروف، «في المواجهة الثقافية»، **مجلة الفكر السياسي**، العدد ١٣، ١٤ (ربيع وصيف ٢٠٠١): ١٥٠

٣) دفـع العرب إلـى القبول بالآخـر «الإسرائيلي» في الفتـرة المقبلة ضمـن شروطه التي يفرضها في عصر قوته.

٤) الترويـج لفكرة التعايش مع الآخـر «الإسرائيلي» في كل القطاعـات. وسينعكس هذا حتمًـا في المناهج المدرسية الرسمية، التي ستكون ملزمة بإجراء التغييرات فيها، بما لا يتناقض مع الاتفاقيات المعقودة.(٥٣)

تنطلق الصهيونية في التعامل مع العرب من بعض ما نص عليه التّلمود حين يقول: «إن السيطرة على الإنسان تتم عبر عقله وفكره» كما ينطلقون في التعامل مع العرب وفق قناعات توصل إليها الصهيوني؛ مثل: «موشيه دايان»، الذي قال يومًا: «إن العرب لا يستفيدون من التاريخ». ساق مثالاً على ذلك من حرب ١٩٦٧؛ حيث كان تنظيم الجيش وخطة عملياته، وخطوط تحركه على النظام البريطاني، والفرنسي الذي اعتمد في معارك الحرب العالمية الأولى وكأن الحرب العالمية الثانية لم تحدث. (٥٤)

إن استخدام الصهيونية لسلاح الثقافة جعل نفوذها دائمًا أكبر بكثير من نسبتها العددية ومع هذا التأثير صار من الممكن القول، إن معظم المؤثرين في حقول الثقافة في شرق العالم وغربه خاضعون لعملية تلاعب بالعقول حين يتعلق الأمر بالعرب وموطنهم وحضارتهم وأفكارهم وثقافتهم وطموحاتِهم؛ مثلاً هناك إصرار على التجاهل الجغرافي لوجودهم، فالوطن العربي صار عند الآخر الإسرائيلي الشرق الأوسط. وهذه التسمية لا تدخل في حسبانها أقطار المغرب العربي التي يتعمدون نزع صفة العروبة عنها ووصفها بـ (الشمال

(٥٣) عدنان أبو عامر، «التطبيع الثقافي، الأهداف والشواهد والتعثر»، **مجلة عصر الفكر** (يونية ٢٠١٠): ٢٨.
(٥٤) محمد حسنين هيكل، «عام من الأزمات: كلام في السياسة»، **مجلة وجهات نظر** (فبراير ٢٠٠١): ٨.

الإفريقي). وفي الحالتين وصف جغرافي يراد ترسيخه في الذاكرة والموسوعات العالمية[٥٥]، هذا الوصف الجغرافي لا يأخذ بالاعتبار هوية سكانه أو حضارته أو ثقافته. وانسجامًا مع ذلك فإن الموسوعة اليهودية، والموسوعة البريطانية لا تفردان «للعرب» أو «للعربي» مادة خاصة بهما بحروف متميزة كما تفعلان مع المواد الأساسية التي تكتب بحروف واضحة وعناوين متميزة. هذا بقصد تكريس الصورة المشوهة عن العرب كمقدمة لإخراجهم من التاريخ بعد أن حاولوا طمس وجودهم من الموسوعات ومن ساحة الثقافة العالمية. [٥٦]

تؤمن إسرائيل بقوة أن الثقافة في تحقيق ما تصبو إليه لذلك تشعر أنها تربح معظم المعارك التي تخوضها. جاء في إحدى النشرات الصهيونية التي تسمى (الفيالا) ومعناه (التراث) والتي توزع سرًّا على بني صهيون ما يلي:

«أيها الإخوة إننا لم نعد نخشى أحدًا، لن يجرؤ أحد بعد اليوم على مناصبتنا العداء، ولو قدر لأحد أن يتهم باللاسامية والعنصرية لا يلبث أن يجد نفسه محتضرًا منبوذًا من قبل العالم أجمع فيضطر إلى التواري عن الأنظار قبل أن تحل به الكارثة التي حلت بغيره. أيها الإخوة فكروا جيدًا... ألا يحق لكم بعد كل هذا أن تفاخروا بكونكم منا نحن الذين نملك الصحافة والمطبوعات في العالم، ونوجه ثقافة الشعوب، ونسيطر على السينما والإذاعة وكل أجهزة التوجيه ووسائل الإعلام؟ نقول إننا نوجه العالم كما نشاء، فالشعوب تصفق لمن نصفق له، وتحتقر من نحتقره، ولا تفكر إلا فيما نفكر فيه». [٥٧]

(٥٥) معروف، «في المواجهة الثقافية»: ١٤٥.
(٥٦) «نشرات إسرائيلية»، **مجلة المستقبل العربي**، عدد ١٠١ (١٩٩٧): ٢٧.
(٥٧) فؤادين سيد عبد الرحمن، **النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية** (القاهرة: مركز التنوير الإسلامي، ٢٠٠٤): ١٤٧– ١٤٨

يتجلى إيمان الصهيونية بقدرة الثقافة ودورها بإجراءات في الواقع. فهذا الكيان الذي لا يتجاوز عدد سكانه ٧,٧ ملايين نسمة(٥٨)، وفي ظل غياب أي دور حضاري، ومع لغة غابت عن الوعي عشرين قرنًا، وافتقدت كثيرًا من آليات التعبير، هذا الكيان وبهذا الواقع ينقل إلى العبرية كل عام ما لا يقل عن ٥٠٠ عنوان من شتى المراجع والكتب الثقافية والمعرفية والعلمية. في حين أن الأمة العربية بعدد سكانها وحضارتها المتراكمة ولغتها التي هي من أكثر لغات الدنيا ثراءً، وإمكاناتها المادية الضخمة، لا يزيد عدد العناوين التي تنقلها إلى اللغة العربية عن ٤٠٠ عنوان. هذا الاهتمام الهائل بالترجمة إلى العبرية من كافة اللغات العالمية، يصحبه اهتمام الكيان الصهيوني المتميز بالكتاب؛ بحيث تأتي العبرية في المرتبة الثانية بعد الدنمارك في معدل نشر الكتب بالنسبة لعدد السكان. وهناك اهتمام لا يوصف بإحياء اللغة العبرية – اللغة الميتة، فإسرائيل تحرم استخدام المصطلح الأجنبي في حالة وجود نظيره العبري(٥٩).

من ثم يمكن القول إن إسرائيل لجأت إلى العمل على استخدام عدد من الوسائل في محاولة لكسر الحاجز النفسي على المستوى الثقافي؛ من أبرزها:

١) طرح أنماط متنوعة من الخطاب الفكري الثقافي؛ بحيث تستوعب شرائح المجتمع المختلفة في سبيل مد الجسور للقوى الليبرالية. طرحت إسرائيل نفسها لمواجهة ديمقراطية الدكتاتورية، والحكم الشمولي، والقول بأن السلام يدعم ويعزز الديمقراطية، في حين يستغل العداء لإسرائيل والحرب معها، لمصادرة الحريات الديمقراطية، وتوجيه الأنظار إلى صراع خارجي مفتعل بدلاً من حل المعضلات الداخلية. وفي مواجهة القوى التكنوقراطية، طرحت فكرة السلام باعتبارها مصدرًا

(٥٨) وفقًا لمكتب الإحصاء المركزي في إسرائيل للذكرى الثالثة والستين لقيامها.
(٥٩) معروف، «في المواجهة الثقافية»: ١٤٦.

للنفـع الاقتصادي، وتوجيـه الموارد للخدمات والإنتاج بدلاً مـن إهدارها في الحرب التي تجلب الدمار إلى المنطقة.[٦٠]

٢) تنشيـط حركة العلاقات الاجتماعيـة والثقافية وتبادل المعلومـات والعلوم في تواصل إنسانـي طبيعـي. ومـن أجل هـذا تم تنفيذ عـدد من الآليـات؛ منها فتح بـاب الحوار بالمؤتمـرات والندوات والمحاضـرات. أقامت جامعة تل أبيب مركـزًا للسلام أنشئ مـن قبل الوصـول إلى اتفاقية السلام مـع مصر[٦١]. وقد ساعد هـذا المركز على إجراء الاتصـالات الشخصيـة بين أساتذة جامعة تـل أبيب والمثقفين المصرييـن. كما أنشئ كرسي أستاذية لتاريخ مصر وإسرائيل في جامعة تل أبيب، خصص لتاريخ مصر وعلاقاتها بإسرائيـل. كما تبارى المفكرون والباحثون الإسرائيليون في إجراء الدراسات والحوار وعقد الندوات حول مجالات التعاون الثقافي بين إسرائيل والعرب.[٦٢]

٣) وفي إطار الحديث عن المصادر الثقافية لا يجوز أن نغفل الدور الذي يقوم به «المركز الأكاديمـي الإسرائيلي بالقاهرة»[٦٣] الذي أُنشئ في مصر عام ١٩٨٢، وهو يقوم بعدد من الأنشطة الثقافية بمصر؛ لعل من أبرزها:

- رعايـة البحـث والدراسة فـي التربية والعلوم والثقافـة والتكنولوجيـا والآثار والفنون والتاريخ.

(٦٠) محسن عوض، **الإستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨): ٥٨.
(٦١) أداره في بادئ الأمر الأستاذ أفيفي أفيني، ثم تولاه الأستاذ ديفيد هورن.
(٦٢) عوض، **الإستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية**: ٤٦.
(٦٣) يقع المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة في ٩٢ ش. النيل (شقة رقم ٣٣) بالقرب من «شيراتون القاهرة». يضم المركز مكتبة وقاعة محاضرات صغيرة تكاد تستوعب خمسين شخصًا. ويعمل المركز بتنسيق كامل مع المستشار الثقافي والمستشار الإعلامي بالسفارة الإسرائيلية في القاهرة، تشرف عليه علميًا «الأكاديمية الإسرائيلية للعلوم والآداب» بالاشتراك مع «الجمعية الشرقية الإسرائيلية».

- استضافة ومساعدة الباحثين الإسرائيليين، الذين يحصلون على منح دراسية، والعلماء الزائرين الذين يقيمون في مصر لأغراض الدراسة والبحث.
- اتخاذ الترتيبات اللازمة مع السلطات المصرية ذات الشأن، لتمكين العلماء والباحثين الإسرائيليين من متابعة بحوثهم في المؤسسات الأكاديمية ودور الوثائق والمكتبات والمتاحف.
- عقد دورات للعلماء والباحثين الزائرين، وإتاحة الفرصة لهم لمقابلة علماء وباحثين مصريين والتعاون معهم.

والحقيقة أنّ أهداف هذا المركز الحقيقية ونوعية نشاطاته وممارساته في السنوات السابقة، تجعله من أخطر المواقع الهجومية المتقدمة في إستراتيجية الغزو الفكري – الثقافي الإسرائيلي ضد العقل العربي، وشبكة متطورة لمؤسسة الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية (الموساد)؛ للتغلغل في مجالات البحث العلمي كافة، وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المصرية بوجه عام.(٦٤)

٤) تم التركيز في الثمانينيات على مؤتمرات الطب النفسي من أجل إعادة تكييف طبيعة الصراع، وتجاوز الحاجز النفسي وإرساء فكرة السلام باعتبارها مصدرًا للنفع الاقتصادي، لكن حقبة التسعينيات شهدت المحاولات الدءوبة لإدماج التطبيع الثقافي مع مفاهيم العولمة التي سعت لتذويب ثقافة المنطقة من خلال التركيز على فكرة الشرق أوسطية، والتأكيد على تعدد الهويات والثقافات في المنطقة، والسعي لتفكيك مكونات الثقافة العربية وطمس الهوية الثقافية. وينشغل هذا التحالف منذ بداية العقد

(٦٤) خلف محمد الجراد، «مراكز الأبحاث والمؤسسات العاملة في خدمة التطبيع والإستراتيجية الصهيونية»، **مجلة الفكر السياسي**، العدد ١ (شتاء ١٩٩٧): ١٤١.

الأول مـن الألفيـة الثالثة، وبعد أحداث ١١ سبتمبر بإعـلاء صوت مكافحة الإرهاب؛ ومحاولـة توظيـف قوانين مكافحـة الإرهاب؛ من أجـل إضعاف الأصـوات الداعمة للمقاومـة بدءًا بتعقب المعادين للسامية من خلال استصدار تشريعات من الكونجرس، وانتهاءً ببرامج الإصلاح السياسي التي أطلقتها أمريكا وفرضتها على الدول العربية؛ من أجل تغيير نظمها الاجتماعية والثقافية والسياسية.(٦٥)

٥) تزداد استضافة صهاينة في وسائل الإعلام العربية بخاصة الخليجية منها، وبالتحديد في الفضائيـات. تكثفت الاتصالات الإعلامية مع صهاينة مـن السياسيين والاختصاصيين حتى أصبح من المألوف أن يرى المشاهد العربي معلقًا أو محللاً سياسيًّا صهيونيًّا على الشاشة العربية أو يرى صانع قرار صهيونيًّا أو متحزبًا، إلخ. لقد تم كسر تلك الحواجز التـي أبقت الصهاينة بعيدين عن وسائل إعلامنا، وتطورت عند بعضنا اتجاهات جعلت مـن المحرمات سابقًا حلالاً ومرغوبًا فيها، ودفعت نحو إزالة كل العوائق والتبريرات. وبعـد أن كان الظهور الإعلامي باتجاه واحد، أي استضافـة وسائل الإعلام الصهيونية لعرب وفلسطينيين، أضحى الآن باتجاهين.

تواجه وسائل الإعلام العربية المضيافة انتقادات من قبل الرافضين للتطبيع سواء على مستوى الأشخاص أو لجان مقاومة التطبيع. يستند الانتقاد إلى أن هذه الوسائل أدخلت الصهاينة المعتدين إلى البيت العربي وأعطتهم فرص مخاطبة الناس وإقناعهم بما يطرحون وبكيفية تحليلهم للأوضاع والتطورات وبنظرتهم نحو المستقبل والعلاقات مع العرب كأمة وحكومات. صنع الصهاينة من خلال عدوانهم المستمر على الأمة العربية وأطماعهم الجغرافية والاقتصادية صورة قاتمة لأنفسهم حتى باتوا متساوين مع الشياطين التي لا تكف

(٦٥) عواطف عبد الرحمن، «التطبيع بين مصر وإسرائيل.. الحصاد المر والتحديات»، **المصري اليوم** (٨ أغسطس ٢٠٠٩)، http://www.almasryalyoum.com/node/144304

عن إلحاق الأذى بالآخرين وتضليلهم. وتأتي وسائل الإعلام لتظهرهم على أنهم بشر مثل العرب، وأن لهم متطلبات أمنية ومعيشية كباقي الأمم والشعوب مؤثرة بذلك بدرجة كبيرة على الصورة التي صنعها الصهاينة لأنفسهم وبأيديهم. فلماذا هذا التطوع الذي لا مبرر له في تقديم الصهاينة لأبناء الأمة بثوب من الكلام الجميل وبصورة الإنسان المتحضر الذي يتحدث بالعقل والمنطق ويراعي متطلباته الإنسانية؟

أما وسائل الإعلام فتبرر ما تقوم به على أنه خطوة متطورة نحو تثقيف العرب حول منطق الصهاينة وطرقهم في فهم الأمور وتبريرها. إنها، حسب قولها، تأتي بالصهيوني إلى العربي لكي يخاطبه مما يجعل العربي أكثر قدرة على استيعاب الأوضاع وفهم العقلية الصهيونية وأساليبها في الدعاية والإقناع. لقد استمع العربي عبر السنوات إلى ما يقوله العرب وارتسمت في ذهنه صورة من خلال وسائل الإعلام العربية ممزوجة بواقع ودعاية سياسية قد لا تكون دقيقة، ولماذا لا تتاح له فرصة تكوين صورة من خلال ما يلمسه مباشرة من الصهاينة؟ أي أنها تقول إنها لا تقوم بدور تطبيعي وإنما بدور إعلامي مهني وتثقيفي مع الالتزام بحاجة العربي إلى معرفة عدوه بصورة مباشرة.(٦٦)

٦) تنشيط السياحة، ولا يخفى أثر السياحة في إحداث دعم التفاعل الاجتماعي المؤدي إلى تغيير أنماط السلوك، فتقود السياحة إلى علاقات قوية بين دول المنطقة وشعوبها، وكسر الحواجز النفسية المزمنة نتيجة للصراع العربي الصهيوني، واغتصاب فلسطين العربية.

(٦٦) عبد الستار قاسم، «التطبيع مع العدو الصهيوني»، **جامعة العدل والإحسان**، http://www.aljamaa.net/ar/document/2320.shtml

وتلعب السياحة دورًا هامًّا في العلاقات بين إسرائيل وبين دول المنطقة للأسباب التالية:

- وجـود الأماكن المقدسة والمسجد الأقصى فـي القدس وبيت لحم والناصرة وطبرية، ممَّا يشجع على الحج وعلى السياحة الدينية.
- وجود معالـم سياحية جذابة على سواحـل البحر الأبيض المتوسـط، والبحر الأحمر، والبحر الميت، وبحيرة طبرية.
- وجود سياحة صيفية وشتوية بسبب المناخ والتضاريس والتركيز على السياحة الطبية.
- توافر المنشآت السياحية ومحلات اللهو والترفيه.(٦٧)

٧) تلجـأ إسرائيل إلى عدد من الوسائل التربويـة الممنهجة من أجل كسر الحاجز النفسي، ويتم ذلك من خلال تبني برامج في المناهج المدرسية خاصة في مادتي الدين والتاريخ؛ لأنهمـا مادتان أساسيتـان في خلق الوعي العربـي بالإسلام والتـراث وسيرة الأجداد. فبالنسبـة للدين فـي مناهج التعليم العربية يتـم التركيز بدرجة أكبر علـى أسس كهنوتية تركـز على عبادات شعائريـة دون العمل العام، ليتم تجاوز الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيـل وسوء صنيعهم وغضب الـرب عليهم. ويضاف إلى المناهج غرس قيم جديدة مـن التسامح الديني والمحبة التي تضع اليهود في قائمـة الأخوة والمؤمنين الموحدين المحبين للسلام والوئام والتعايش مع الشعوب الأخرى. أما بالنسبة للتاريخ فكان لابد من إحداث تعديلات على المناهج؛ حتى يكون لإسرائيل مكان في المناهج مخصص؛ للحديث عن قيامها، ومحـاولات اليهود للّم الشمل والعودة إلى الأرض المقدسة، في محاولة لوقف الحديث عن اغتصـاب فلسطين وطرد الفلسطينيين وتشريدهم وتحول مشكلتهـم إلى قضية إنسانية يؤسف لحدوثهـا، وكذلك التدخل بالنسبة للجغرافيا التي

(٦٧) غازي حسين، **الشرق الأوسط الكبير بين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية** (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥): ٢٥.

تهـدف إلى جعل جبل يونس الحلحولي أعلى جبال فلسطين، ومن حيفا عروس البحر الإسرائيلية.

أما البحث عن سبل العودة فتختفي لصالح الحديث عن جهود تعويض اللاجئين وتحسين ظروفهم المعيشية. وهناك أيضًا كثير من المحاولات من أجل إخفاء اسم فلسطين عن الخرائط العربية لتحل محلها إسرائيل. ربما لن تضغط إسرائيل ليتم هذا دفعة واحدة وبسرعة، وإنما تقوم بخطوات تدريجية وممنهجة تؤدي إلى ما تريد وما تعتقد أنه السياسة السليمة.(٦٨)

٨) العمـل علـى تحسين صورة الكيـان الإسرائيلي في أذهان الجيـل الجديد، وخاصة أن صـورة «إسرائيل» باتـت تمر بمرحلة خطرة علـى مستوى العالـم، وأن معظم الدول الأوروبيـة باتت تنظر إلى «إسرائيل» على أنها سفاح همجي في الشرق الأوسط وذلك من خلال عدة سبل؛ منها:

- تشكيل مجموعة من نواب في الكنيست من مختلف التيارات والأحزاب «الإسرائيلية» أطلـق عليها «فيلق السفراء» تهـدف إلى تحسين صورة «إسرائيـل» في مختلف أنحاء العالم. وقرر الكنيست بلورة اقتـراح يتضمن إنشاء طاقم من أعضاء الكنيست؛ للدفاع عن «إسرائيل» في المحافل الدولية، على أن يتولى كل نائب دولاً عدة للتعرف على آراء جمهورها، وإعداد خارطة إعلامية للتعامل مع وسائل الإعلام المحلية.(٦٩)

(٦٨) قاسم، «تطبيع المفاهيم»: ٢٥– ٢٦.

(٦٩) «فيلق السفراء لتحسين صورة «إسرائيل عالميًا»»، **مفكرة الاسلام**، http://www.islammemo.cc/akhbar/arab/2010/05/20/100393.html

- مـن أجل تحسيـن صورتها، قامـت إسرائيـل بتجنيد جيش مـن العامليـن على شبكة الإنترنـت. أهـداف عمل هؤلاء المجنديـن الذين يبلغ عددهم أكثر مـن ألف مستخدم للشبكة: المدونات، ووضع التعليقات، والمشاركة في المواقع الإلكترونية والشبكات ذات الطابـع الاجتماعي واستطلاعات الرأي، وأيضاً فـي وضع أفلام فيديو على موقع «يوتيـوب». إن عمل هـؤلاء المتخصصين يقوم على تصوير المواقـع التراثية والطبيعية الإسرائيلية الأكثر جمالاً، وغير المألوفة، الموجودة على أراضي «الدولة العبرية»، هذا إضافة إلى المرافق السياحية فيها. (٧٠)

٩) نزع مفهوم ودوافع الجهاد في محاولة لنزع دوافع النضال والمقاومة من صلب تكوين الشخصيـة العربيـة الإسلامية. عكفت دولـة الاحتلال الإسرائيلي علـى ربط المقاومة الفلسطينيـة بالمنظمـات الإرهابيـة، وبوصف المقاتليـن الفلسطينييـن بالمخربين أو الإرهابيين، وذلك في خلط واضح ومبرمج بين ما هو حق مشروع في مقاومة المحتل، وبيـن ما هو إرهـاب دأب الاحتلال الإسرائيلي على ممارستـه ضد الشعب الفلسطيني عبر عقود طويلة من الزمن. (٧١)

١٠) العمل علي تشجيع الهجرة إلى إسرائيل، فيعيش في إسرائيل نحو سبعة آلاف مواطن من أصـل مصري منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيـد سنة ١٩٧٩ م، القسم الأكبر منهم يحمل الجنسية الإسرائيلية. (٧٢)

---

(٧٠) Tamar Eichner, "Foreign Ministry out to ‹conquer› internet", **Y net news,** http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3683202,00.html

(٧١) نهاد عبد الإله خنفر، **التمييز بين الإرهاب والمقاومة وأثر ذلك على المقاومة الفلسطينية بين عامي ٢٠٠١، ٢٠٠٤** (رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠٠٥): ٧– ٨.

(٧٢) مجدي قرقر، «بين التطبيع الرسمي والرفض الشعبي»، **مجلة عصر الفكر** (يونية ٢٠١٠): ١٢.

إن إصرار إسرائيل على تبنّي بعض الاستراتيجيات خصوصًا في الميدان الثقافي، إنما ينبع من إدراكه أن هذا الميدان، هو المؤهل والقادر على تلويث الفكر العربي والثقافة الشعبية، وضخ المفاهيم والتصورات المشوهة لقيمه والشخصية القومية، وبالتالي فإن الوسائل الثقافية تستهدف في التطبيق العملي:

١) إعادة كتابة التاريخ الحضاري للمنطقة العربية، من خلال تزييف العديد من الحقائق والبديهيات التاريخية المتعلقة بالطريقة الاستعمارية الاستيطانية التي أقحمت دولة الكيان في الوطن العربي.

٢) التوقف عن تدريس الأدبيات والوثائق والنصوص المعادية لليهود ودولة إسرائيل، بما في ذلك الوارد منها في بعض الكتب المقدسة كالقرآن الكريم تطبيقًا للمادة الخامسة من مواد اتفاقيات كامب ديفيد؛ حيث كثفت إسرائيل جهودها العلمية لرصد وتسجيل وتحليل المفاهيم الإسلامية المؤثرة بوصفها أحد أبرز وجوه العناصر البنائية للذهنية العربية.

٣) أن تصبح الجامعات ومراكز الأبحاث الإسرائيلية مرجعية علمية للمنطقة بأسرها؛ بحيث تؤسس للمشروع الموجه لتدمير الثقافة والهوية الحضارية للمنطقة العربية بأكملها، بل وإحداث التفكيك والفوضى داخل كل قطر عربي عبر إذكاء روح التناحر بين المنتمين للأديان والطوائف والمذاهب والجماعات المختلفة من جهة، وعبر محاولة تحقيق السيطرة الثقافية والعلمية والتقنية من جهة أخرى.[٧٣]

وهو ما عبر عنه «بيريز» في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» بأن «القوة في العقود القادمة في الجامعات وليس في الثكنات». يعد هذا تلخيصًا مكثفًا للإستراتيجية الصهيونية

(٧٣) الجراد، «مراكز الأبحاث والمؤسسات العاملة في خدمة التطبيع والإستراتيجية الصهيونية»: ١٣٨-١٣٩.

في هذا المجال. «وتقوم هذه الإستراتيجية على تجريد الأمة من ثقافتها؛ لكي تصبح شبيهة بثقافة الكيان القائم في قلبها، أي من دون ثقافة موحدة»(٧٤)

٤) تدمير المقومات الذاتية للثقافة والحضارة العربية، ولهذا فهو في نظر خبراء إسرائيل وباحثيها وقادتها العنصر الأهم والأكثر إلحاحًا في فرض الهيمنة على العرب، وجعلهم يستسلمون نهائيًّا تعبيرًا عن الهزيمة الحضارية والانهيار القومي والانتحار الجماعي.(٧٥)

إن العقل الصهيوني بات يدرك أن الثقافة العربية صعبة الاختراق لعراقة جذورها ومتانة مقوماتها، لذلك لجأ إلى وسيلة أيسر وأسهل، تتمّثل في اختراق بعض المثقفين العرب، الذين يمكن استخدامهم كأدوات لتفكيك حصن الثقافة العربية؛ وذلك لهدم أساسها من الداخل. ويأخذ هذا الاختراق أشكالاً وأساليب متنوعة من التطبيع وتصفية مصادر أو منابع العداء في الفكر السياسي العربي، ومحاولة إلغاء ما يسمى بـ «الطابع السلبي» السائد في الأيديولوجية العربية تجاه إسرائيل والصهيونية، وخلق قاعدة فكرية للتواصل والتعامل المباشر مع بعض القوى والهيئات والجماعات والنخب الفكرية والسياسية القائمة.

إن الوسائل الإسرائيلية من أجل كسر الحاجز النفسي تستهدف الإبداع العربي في كل أجناسه، خاصة وأن الصراع العربي ضد الصهيونية وأهدافها وأخطارها على الوطن العربي، وكذلك مقاومة الأطماع الغربية في وطننا وثرواته، تمثل – هذا الصراع – في عناوين رئيسة، في إبداعنا الأدبي والفني من شعر، ورواية، وموسيقى، وأغانٍ، ومسرح، وسينما، وفن تشكيلي، فأي اتجاه ستسلكه هذه الإبداعات في ظل التطبيع الثقافي، وفي ظل المتغيرات السياسية والاقتصادية، وتغير المفاهيم والأفكار؟ لنلاحظ مثلاً ما جرى للثقافة الفلسطينية

(٧٤) معن بشور، «السلام والتطبيع الثقافي»، **المستقبل العربي**، العدد ٢٠٩ (يوليو ١٩٩٦): ٧.
(٧٥) أبو عامر، «التطبيع الثقافي: الأهداف والشواهد والتعثر»: ٢٩.

خلال السنوات الأخيرة التي تلت توقيع اتفاقية أوسلو، فقد تراجعت عملية الإبداع الفلسطينية من حيث الإنتاج، في كل المجالات الأدبية الشعر، والرواية، والمسرح.. إلخ، للدرجة التي قل فيها إنتاج الأغاني الثورية التي تمجد الوطن والنضال، وتحفز روح المقاومة.

ويمكن فهم الأسباب التي قادت إلى هذا الحال:

١) نتيجة الارتباك الذي وقع فيه المثقفون تجاه الحل السياسي الذي وقع، ومفاهيم التحرر والسلطة والسيادة.

٢) طبيعة الاتفاقات التي تنص على عدم التحريض على الطرف الآخر، أو التعريض به، وإلا اعتبر ذلك خرقًا للاتفاقيات. وقد بدأت الاستجابة لهذا الواقع، والانسجام معه، تأخذ طريقها لكتب التربية المدرسية، لكنها لم تغز إنتاج المثقفين بعد، الذي ظل صامتًا.

٣) العلاقة التشابكية بين السلطة الوطنية وسلطة الاحتلال، وما هو موقف المثقف منها؟ وكيف يتصرف حيالها؟ وكيف سيكون رد الفعل من تصرفه؟ إلى جانب انخراط عدد كبير من المثقفين في مراكز مسئولة في السلطة، وعدم الاهتداء إلى صيغة تحرر إبداعهم من قيود مسئولياتهم.[٧٦]

(٧٦) المرجع السابق: ٣٠.

دور مصادر الثقافة في تشكيل الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي

الثقافة هي روح الأمة وعنوان هويّتها، وهي من الركائز الأساسية في بناء الأمم وفي نهوضها، فلكل أمة ثقافة تستمدّ منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، وتصطبغ بصبغتها، فتنسب إليها. وكل مجتمع له ثقافتُه التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها.

والثقافة تعني صقل النفس والمنطق والفطانة، وفي القاموس المحيط: ثقف ثقفًا وثقافة، صار حاذقًا خفيفًا فطنًا، وثقَّفه تثقيفًا سوَّاه، وهي تعني تثقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه.(٧٧)

واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. والثقافة ليست مجموعة من الأفكار فحسب، ولكنها نظرية في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تميز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. وفي الجملة فإن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.(٧٨)

---

(٧٧) عبد الآخر حماد، «مفهوم الثقافة والحاجة إلى تحديد المصطلحات»، الرحمة، http://www.rahmah.de/makal/takafa.pdf

(٧٨) عبد العزيز بن عثمان التويجري، «الثقافة العربية والثقافات الأخرى»، Sheba Center for Strategic Studies ، http://www.shebacss.com/docs/soritasr0010-10.pdf

وتتميّز الثقافة في المجتمع بعدة خصائص؛ منها:

١) أنها ظاهرة إنسانية، أي أنها فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات؛ لأنها تعبير عن إنسانيته، كما أنها وسيلتُه المثلى للالتقاء مع الآخرين.

٢) أنها تحديد لـذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع ما وراء الطبيعة، من خلال تفاعله معها، وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة.

٣) أنها قـوام الحياة الاجتماعية وظيفة وحركة، فليس من عمل اجتماعي أو فني جمالي أو فكري يتم إنسانيًّا خارج دائرتها. وهي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادةً وبشرًا ومؤسسات.

٤) أنها عمليـة إبداعية متجـددة، فالتفاعل مع الواقع تكييفًا أو تجـاوزًا نحو المستقبل من الوظائف الحيوية لها.

٥) أنها إنجـاز كمّي مستمر تاريخيًّا، فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابـق، وتجدد قيمه الروحيـة والفكرية والمعنوية، وتوحد معـه هوية الجديد روحًا ومسـارًا ومثـلاً. وهذا هو أحد محـركات الثقافة الأساسيـة، كما أنه بُعـد أساسي من أبعادها.(٧٩)

وإذا انطلقنا إلى التركيز على الآخر الإسرائيلي في الثقافة العربية، فنجد أن الإسرائيلي بالنسبة للعربي ليس مجرد آخر، كأي آخر، وإذا جاز وسماه بالآخر فهو آخر نوعي، معقدة ومتشابكة علاقاته التاريخية والمعاصرة بالمصريين والعرب معًا. إنه كان ولا يزال عدوًّا من نوع خاص، تتكثف عنده كل الاعتداءات الخارجية على العرب في التاريخين الحديث والمعاصر.

(٧٩) المرجع السابق: ٤.

في حقيقة الأمر إن تكوين الحاجز النفسي في أبعاده الذاتية والموضوعية، تمر في بادئ الأمر عبر الذات المكونة لهذا الحاجز بكل ما تحوزه الذات من موجهات أيديولوجية وسياسية وخبرات مباشرة، تاريخية ومعاصرة، هذا فضلاً عن أن الآخر وما يفعله يسهم في تأسيس المرتكزات الأساسية لنشأة الحاجز النفسي.

تؤثر اللحظة التاريخية التي يتأثر بها الإدراك الجماعي للذات لهويتها الجماعية، في إدراك صورة الآخر، فالذات قد ترتضي في الآخر ما لا تريده لنفسها، مع مراعاة أن الإيجابي أو السلبي في الآخر، قد يتأثر بعمق الإدراك للهوية الجماعية وتجليها. ففي لحظات تجلي هذه الهوية، يكون التركيز على إيجابيات الآخر، وفي الحالين يلعب فعل الآخر دورًا مهمًّا فيما ينتقي كمرتكزات لأبعاد صورته. فإذا كانت الصورة جيدة فتكون هناك رغبة في التعامل والتفاعل، وإذا كانت الصورة سلبية، فبالتالي ينشأ الحاجز النفسي.(٨٠)

ولابد من ذكر أن ثمة ثوابت في أبعاد تكوين الصورة وتشكيل الحاجز النفسي، كما أن هناك متغيرات ترتبط بالمستجدات في العلاقة بالآخر، تلك المستجدات التي تسهم في استدعاء الثابت التاريخي نسبيًّا.

في هذا الصدد نجد أن ثمة مصادر أثرت في مدخلات إدراك صورة الإسرائيلي بجانب الخبرة المباشرة، مما أدى إلى تكوين الحاجز النفسي في مقدمتها النص الديني، والثقافة الشعبية، والتعليم الرسمي، ووسائل الإعلام المختلفة، والمنتج الفني والأدبي حول الإسرائيلي، وغيرها، ويتأثر استيعاب وتمثل الفرد الاجتماعي بما قدمته هذه المصادر من معلومات.

(٨٠)عبد الباسط عبد المعطي، «صورة الإسرائيلي لدى المصري بين ثقافة العامة والدراما التليفزيونية»، في «**صورة الآخر.. العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**»، تحرير الطاهر لبيب (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩): ٣٥٧-٣٥٩.

أولاً: التراث الديني والحاجز النفسي

أ- التراث الديني الإسلامي

يعد القرآن الكريم المصدر الأساسي للثقافة العربية؛ بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحًا لكل زمان ومكان، ومسايرًا لمتطلبات كل عصر ومستجداته.

وتشكل السنة النبوية المصدر الثاني الأساسي للثقافة العربية. وكما اعتمد المسلمون في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، اعتمدوا كذلك على سنة نبيّهم بعد أن جمعوها ودوّنوها وفصَّلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية. (٨١)

يمثل التراث الديني أهم المنابع وأشدها تأثيرًا في صناعة الصورة السلبية عن الكيان الإسرائيلي؛ حيث يطرح التراث الديني ممثلاً في القرآن والسنة لوحة كاملة عن جوهر السلوك اليهودي منذ بداية الديانة اليهودية وحتى صدر الإسلام. ويتولى رجال الدين في أكثر من موضع طرح أهم معالم صورة اليهود، والتي يمكن أن تساعد على تفسير ما يجرى في الواقع من أحداث خاصة بالصراع العربي الإسرائيلي. وقد ساهمت الخطب المنبرية والدروس الدينية والصحافة الدينية وكتب التفسير المتداولة في الربط بين صورة اليهودي وصورة الإسرائيلي. وساهم التراث الديني في رواج هذا الاختزال داخل المنابع الأخرى التي تغذي الصور السلبية، وهي التراث الشعبي والتراث السياسي وأحداث الحياة المتصلة

(٨١) التويجري، «الثقافة العربية والثقافات الأخرى»: ٥.

بالصراع مع إسرائيل. وبطبيعة الحال، فإن الرؤى الدينية تشكل سلطة مرجعية يجرى الاستناد إليها داخل تلك المنابع وخصوصًا التراث الشعبي.(٨٢)

إن العربي خلط بين ما هو ديني وما هو سياسي، فأصبحا مترادفين يستخدم الواحد منهما للدلالة على الآخر. وهم لم يأتوا بهذا بناءً على موقف مسبق مطلق، وإنما بناءً على عوامل تاريخية ومعاصرة، تجعل من هذا الموقف موضوعًا فُرض على المخيلة والذاكرة فتفاعلتا معه وأعادتا إنتاجه بحسب ظروف المراحل التاريخية ومتطلباتها.(٨٣)

ولو تأملنا المعطيات المنتجة لمثل هذا الوصل والتطابق بين اليهودي والإسرائيلي سنجد أنه يرتبط باختيار الكيان الصهيوني، اسم إسرائيل كاسم لتجمعهم – أو دولتهم – وهو اختيار أتى محملاً بدلالات دينية وسياسية وعنصرية وهو يستدعي مباشرة، لدى العربي المرجعية الدينية، وما أتى به النص الديني الإسلامي من ربط بين اليهود وإسرائيل، وأيضًا صفات اليهود التي تمركزت حول خياناتهم للعهود، ومساوماتهم في الأمور حتى المقدس منها. وهي صفات تأكدت في ممارسات مبكرة لليهود في الجزيرة العربية، منذ فجر الإسلام.(٨٤)

وحينما نتأمل الخطاب الديني، وخاصة حينما يكون الحديث عن العلاقة مع الإسرائيلي، فنجده محملاً بالآيات القرآنية؛ من أجل التأكيد على بناء صورة الآخر ومنها:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء/ ٤–٥].

(٨٢) المصري، «الرؤى الاجتماعية والثقافية لإسرائيل»: ١٢٥.
(٨٣) يونان لبيب رزق، **مصر المدنية: فصول في النشأة والتطور** (القاهرة: طيبة، ١٩٩٣): ١٥.
(٨٤) أحلام السعدي فرهود، **التيار الإسلامي والسياسة المصرية تجاه الصلح مع إسرائيل** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، د.ت.): ٢٢٢–٢٣١.

وفيما يتعلق بالخطاب الديني عن الدولة اليهودية، فيتم التأكيد على أنه لم تكن لليهود دولة، فهم أفراد قلائل يهيمون في الأرض على وجوههم لا يجدون لهم ملجأً ولا يجدون لهم ملاذًا.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء/ ١٠٤– ١٠٥].

ب- التراث الديني المسيحي

إن القارئ لتاريخ المسيحية المصرية على مدى العصور، والتي تعود إلى منتصف القرن الأول الميلادي، يجد موقفًا مستقلاً ومناضلاً لكل محاولات الاحتواء والضم الخارجية، سواءً على مستوى العقيدة الدينية أو على المستوى السياسي. وقد مارست المسيحية المصرية هذا السلوك باعتبارها «كنيسة مركز» وليست كنيسة طرف بمعنى أنها إحدى الكنائس الكبرى التي تأسست في العالم، ألا وهي كنيسة الإسكندرية. لقد كانت المسيحية المصرية منحازة دومًا للإجماع الوطني، خاصة فيما يتعلق باستقلال الأمة ومناهضة الوافد الأجنبي حاكمًا أو مستعمرًا أو مبشرًا.(٨٥)

يؤكد رجال الدين المسيحيون أن إسرائيل الحالية لا علاقة لها بإسرائيل القديمة التي وردت بالكتب المقدسة، بل هي عصابات صهيونية، تمثل حركة استعمارية فاشية عنصرية، تقوم على مذهبية ترتكز على الاستغلال والعدوان، وتستند إلى نظريات التوسع والسيطرة، وتستخدم العنف في وسائل تطبيقها وممارستها باعتباره أداة لتحقيق أغراضها. وقد ظهرت إسرائيل بسبب تحالف الاستعمار البريطاني مع الصهيونية.

(٨٥) عبير رشيد، وغادة صبحي، «رؤية المسيحية المصرية لإسرائيل»، في **إسرائيل من الداخل.. خريطة الواقع وسيناريوهات المستقبل**، تحرير نادية مصطفى، مج. ١ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية. كليه الاقتصاد والعلوم الساسية، ٢٠٠٣): ٨٥.

إن المسيحي الذي يؤمن بالكتاب المقدس، لا يمكنه أن يعتبر إسرائيل وحدة جغرافية أو جنسية أو سياسية، بل هي جماعة من البشر، والصورة التي يعكسها الكتاب المقدس عنهم أنهم «حانثو عهد مع الله، موصوفون بأبشع الصفات من القسوة والصلف، وأنهم شعب متذمر وفاسق.. وشعب ترك عبادة الله مرارًا... واستحقوا بذلك لعنة الله وعقوباته، وأسلمهم الله لأيدي أعدائهم وشتتهم في كل أرض لإبادتهم».(٨٦)

وحول قضية القدس، هناك اتفاق عام برفض الاحتلال والتهويد والتدويل بالنسبة للقدس، والتأكيد على عروبتها. ويشار في هذا المقام إلى أن الكنيسة المصرية قد أعلنت موقفها المضاد من القرارات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧، وهو موقف ثابت إلى الآن. وليس هذا فحسب ولكن هناك تأكيد على أن عرب فلسطين هم أصحاب الأرض قبل أن يسكنها اليهود بآلاف السنين، والله سمح لهم في وقت من الأوقات بالسكن على بعض من هذه الأرض، ثم عاد وطردهم منها عقابًا على شرهم وظلمهم، وهو ما ينعكس بدوره على تربية النشء على اعتبار إسرائيل كيانًا عنصريًّا فاشيًّا مفروضًا على الأمة العربية، ولابد من نبذه.

ثانيًا: التراث الشعبي والحاجز النفسي

يحتل التراث الشعبي أهمية كبري، بعد التراث الديني، في إنتاج وتشكيل الحاجز النفسي وتكوين الصورة عن إسرائيل. وغالبًا ما نجد في التراث الشعبي أنه يتم الخلط بين ما هو يهودي وما هو إسرائيلي. ويرجع ذلك إلى ملمح الشفافية الغائب عن التراث الشعبي بالإضافة إلى المرونة في المعتقدات والمعارف والممارسات الشعبية. كذلك اتساع مساحة

(٨٦) المرجع السابق: ٩٠-٩١.

الخيال الشعبي مما يسمح بابتكار مزيد من الصور وتضخيم المعالم القبيحة فيها، وتلبية احتياجات الناس منها بسهولة؛ حيث يمكن للتراث الشعبي أن يستجيب بطريقة متجددة للطلب المتزايد على الصور السلبية للأعداء وكل من يلحقون الضرر، ويسببون الشر في الحياة. ويتميز التراث الشعبي بكثرة الصيغ الجاهزة التي يمكن توليفها في خلق صور متجددة عن الآخر. وهناك شواهد كثيرة على قدرة الخيال الشعبي في تكريس معالم الصور السلبية نحو إسرائيل. ويظهر ذلك بوضوح في بعض نماذج من التعبير الشعبي المختلفة.(٨٧)

ففي خطاب الحياة اليومية يمكن العثور على كثير من المفردات والموضوعات وأشكال التعبير والتشبيهات التي تتسم بالسلبية حول إسرائيل واليهود، فهناك صورة عن اليهود يتداولها الناس في المجتمع المصري؛ مثلاً في الربع الثاني من القرن العشرين؛ حيث كان في مصر طائفة كبيرة من اليهود، امتازوا بالمحافظة على جنسهم، والانطواء على أنفسهم، كما هو شأنهم في كل بلاد العالم، وكان لهم حارة في القاهرة تسمى حارة اليهود، ولا يسكنها غيرهم، وقد عرفوا ببياض البشرة وزرقة العيون، ولهم تطلع خاص في الأعمال التجارية وصناعة الحلي. وقد عرفهم المصريون بالبخل، ولهم في ذلك نوادر لطيفة كثيرة؛ فإذا رأوا من المسلمين من يبخل ويدقق في الحساب قالوا «أنت يهودي». ولأنهم أقلية، فهم أكثر تعاونًا مع بعضهم.(٨٨)

ونظرًا لكثرة استخدام الأمثال الشعبية في الأحاديث ومواقف الكلام، فهناك رصيد من الصور السلبية عن اليهود بالأمثال. وبطبيعة الحال، فإن الأمثال تلعب دورًا في استعادة التراث الشعبي وإعادة إنتاج الصور السلبية داخل التراث عن طريق كثرة التكرار والتداول. كما أن

(٨٧) المصري، «الرؤى الاجتماعية والثقافية لإسرائيل»: ١٢٥–١٢٦.
(٨٨) أحمد أمين، **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية** (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩): ٤٨٥–٤٨٦.

الأمثال تعمل على رسم صور سلبية عن اليهود يمكن توظيفها في الفهم والتبرير فيما يتعلق بوجود حاجز نفسي.

ففي الأمثال الشعبية المصرية مثلاً نجد أنها تصور اليهود بأنهم قوم بخلاء وأنذال وأفاقون. وهذه الأمثال انتشرت منذ أوائل القرن العشرين على اعتبار أنها تعكس خبرات حياتية سلبية مع اليهود في مصر، واستمر شيوع استخدامها حتى الخمسينيات والستينيات ونلاحظ استعمال هذه الأمثال في الثلث الأخير من القرن العشرين غير أنها تظل جزءًا من الذاكرة الجماعية التي تم تدوينها(٨٩). ومنها على سبيل المثال:

- احتاجوا اليهودي قال اليوم عيدي.(٩٠)
- زي ساعي اليهود ما يودي خبر ولا يجيب خبر.(٩١)
- زي طرب اليهود بياض على قلة رحمة. (٩٢)
- زي فقرا اليهود لا دنيا ولا آخره.(٩٣)
- زي اليهود وش نضيف وجبه زي الكنيف.(٩٤)
- زى قراية اليهود تلتينها كدب.(٩٥)

(٨٩) أحمد تيمور، **الأمثال العامية** (القاهرة: مركز الأهرام، ١٩٨٦): ١١.

(٩٠) مثل شعبي يضرب لتعسر الأمور وقيام الموانع. والمعنى أنهم مستغنون عن اليهود، ولكن حينما احتاجوا للاستعانة بأحدهم اعتذر بأنه في عيده أي أنه في عطلة، انظر: المرجع السابق: ١٢–١٣.

(٩١) مثل شعبي يؤكد على الاعتقاد بأن اليهود لا يصلحون لشيء سواء الإرسال أو الاستقبال، انظر: المرجع السابق: ٢٤٥.

(٩٢) مثل شعبي والطرب جمع طربة، وصوابها تُربة ويضرب لحسن الظَّاهر وقبح الباطن، وفي معناه المقصود به مثل قبور الكفار من فوق جنة ومن تحت نار، انظر: المرجع السابق: ٢٥٠.

(٩٣) يضرب هذا المثل الشعبي للسيئ الحال في دنياه وآخرته، انظر: المرجع السابق: ٢٥٥.

(٩٤) **الوش**: الوجه، الكنيف: المرحاض – يضرب لمن يقابل الناس بأشياء على عكس ما بداخله، انظر: المرجع السابق: ٢٦٥.

(٩٥) مثل شعبي يؤكد على كذب وافتراء اليهودي، فحتى عندما يطلب منه القراءة تكون معظم قراءته كذبًا، انظر: المرجع السابق: ٢٥٥.

- قالوا لليهودي احلف قال جالك الفرج.[٩٦]

- وفي مجال السير الشعبية وقائع وأحداث كثيرة يتجلى فيها الصراع بين الخير والشر وينتصر الخير في النهاية. والسيرة عبارة عن قصة شعبية دُوِّن بعضها ويؤدَّى بعضها من خلال رواة محترفين يتمتعون بذاكرة قوية وهائلة على مخاطبة الوجدان، وإدخال تجديدات في نص السيرة من خلال عملية الأداء ذاتها، ولذلك فالسيرة الشعبية فن طيع قابل للتفاعل مع ظروف تاريخية مختلفة وأحداث وصراعات مختلفة. ومن أمثلة السير الشعبية سيرة الظاهر بيبرس، فتم توظيف صورة «جون» اليهودي على أساس أنه مخادع، وتم توظيف هذه الصورة نحو تضخيم صورة الشر والخداع الكامنة في شخصية اليهود، ليس هذا فقط بل هناك العديد من السير الشعبية.[٩٧]

- وفي مجال القصص الغنائي الشعبي هناك إبداعات مهمة حول اليهود، وصورتهم البغيضة في الوجدان الشعبي مما يعمق إحساس الحاجز النفسي؛ منها حكاية خضرة الشريفة والسيد البدوي[٩٨]، التي تصور لنا اليهودي شخصًا سفاحًا مغتصبًا لحقوق الآخرين، وحكاية اليهودي مع الغزالة[٩٩] وهي قصة من التراث الديني أعيد إنتاجها في

(٩٦) مثل شعبي يؤكد أن اليهودي كذاب مخادع يعرف الحق ويحجبه عن الناس ومن ثم فهو على استعداد لبذل الأيمان المغلظة بأنه صادق، وما هو بصادق، وعندما يُطلب منه الحلف فإنه يجد لنفسه مخرجًا ومهربًا. علي محمد الغريب، صورة اليهودي في المثل الشعبي العربي، http:// www.lahaonline.com/articles/view/2222.htm

(٩٧) عبد الحميد يونس، **الظاهر بيبرس** (القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الدراسات الشعبية، ١٩٩٧): ١٨-١٩.

(٩٨) تتلخص الحكاية في المكيدة التي دبرها يهودي في اختطاف فتاة مصرية تدعى خضرة الشريفة وأراد أن يذهب بها إلى عالم آخر غير عالمها، ليغريها بالزواج ويحاول اغتصابها، غير أنها استغاثت بالسيد البدوي الذي أتى إليها في سرعة البرق على هيئة حمام طائر ومعه الدراويش بما يحملونه من عصي الجريد، ودارت معركة بينهم وبين أتباع اليهودي بسيوفهم وانتصر السيد البدوي على الأعداء، وأغار الدراويش على قصر اليهودي وأخذوا المغانم ومعهم خضرة الشريفة التي مازالت بكرًا بأمر الله.

(٩٩) تحكي القصة معجزة الرسول مع الغزالة التي حبسها اليهودي وكانت تئن بكاءً وتريد أن تذهب لإرضاع صغارها، وعندما شاهدها الرسول (ﷺ) طلب من اليهودي أن يفك أسرها لترضع صغارها. واشترط اليهودي أن يتعهد الرسول بعودتها مرة أخرى إلى محبسها قبل السماح لها بالذهاب إلى صغارها. فوافقه الرسول على ذلك، وأكد له أن الغزالة سوف تعود. وبالفعل توضح الحكاية أن الغزالة ذهبت لإرضاع صغارها، ثم تحققت المعجزة، وأوفت الغزالة بعهدها مع رسول الله، وعادت إلى محبسها، مما أدهش اليهودي، ودفعه ذلك إلى الدخول إلى الإسلام.

المخيلـة الشعبية. وتحكي القصة معجـزة الرسول ﷺ مع الغزالة التي حبسها اليهودي، وحكاية ميمونة الجارية التي عذبها اليهودي لكي تكف عن الصلاة ودخول الإسلام.

- إن هـذه الحكايات ألقيت وتغنى بها الناس في الموالـد بكثرة خلال حقبة الستينيات. وهي تخاطب وجـدان المصريين في ذلك الوقت؛ لكي تعمق وتغذي الحاجز النفسي ضد اليهود وتزيد الإحساس بالعداء نحوهم. ومن الواضح أن التراث الشعبي لا يكتفي بذلك بل كان يعمق في المقابل الإيمان العميق بحتمية الانتصار على اليهودي مهما بلغ بـه الدهاء والمكـر والقوة. ولذلك كانت الحكايات تحتشـد بعبارات لها فعل السحر على تعبئة الناس وتكريس روح العداء مع اليهود، وتدفع المتلقين إلى التوحد مع أبطال الحكاية فـي قدرتهم على إلحاق الهزيمة باليهود. وبذلك تبـدأ الحكاية بإشعال دراما الصـراع وكشف فـارق القوة بيـن المصريين واليهـود، ثم تعدهم في الختـام بالنصر المبيـن. وبذلك تعمل الحكايـة على إشعال مشاعر العـداء والكراهية، إلى حد يقترب أحيانًا من اليأس، ثم تنتهي الأحداث بانتصارات خيالية. ومن ثم تعمل على تفريغ طاقة الإحساس بالعجز والتنفيس عن هموم حياتية وثيقة الصلة بالصراع مع إسرائيل.[١٠٠]

ثالثًا: المنتج الفني حول الإسرائيلي والحاجز النفسي

- هنـاك عـدة أعمال دراميـة قدمت صـورًا للإسرائيليين؛ فمـن أهم الأعمـال الدرامية، «رأفت الهجان» و«دمـوع في عيون وقحة»، و«الصعود إلى الهاوية»، و«السقوط في بئـر سبـع». ويعتبر مسلسل رأفت الهجـان من أهم الأعمال الدراميـة؛ وذلك لاتساع

(١٠٠) المصري، «الرؤى الاجتماعية والثقافية لإسرائيل»: ١٢٩-١٣٠.

مساحتــه التاريخية، وشموله على كثير من الشخصيات الإسرائيلية وإذاعته أكثر من مرة في معظم محطات التليفزيون العربية، فضلاً عن نشر نصه المكتوب الذي حظي بتوزيع وانتشار كبيرين. كما أنه يتميز بالربط بين الديني والسياسي، واستدعى الديني التاريخي لتدعيــم السياسي المعاصر. ومن ثم كان الربط بين التاريخــي والمعاصر لدى العربي. لهــذا يعد هذا العمل الدرامي مــن أهم الأعمال المؤثرة في تشكيــل صورة الإسرائيلي لدى العربي[١٠١].

ولعل من أهم المظاهر الهامة في الأعمال الدرامية التي تناولت صورة الإسرائيلي:

- اختيــار الأسماء، فاختيار الأسماء يتأثر بشروط اجتماعيــة وثقافية، حتى في حالة تقليد الآخريــن ومحاكاتهــم. ففي الدراما تــم التركيز على عدد من الأسمــاء التي تعكس في مخيلــة الفرد صــورة الإسرائيلي منها اسم «كوهين» بالنسبة للذكــور إنه اسم ورد أيضًا فــي بعض النكــت المصرية حول اليهود. وجاء في فيلم مصــري شهير أراد أن يعبر عن رمــوز للديانات الإسلاميــة والمسيحية واليهودية في مصر، هــو فيلم «حسن ومرقص وكوهيــن»، وهو الاســم الذي اختاره «رأفــت الهجان» لأبيه في مرحلــة ما قبل عمله مــع المخابــرات المصرية «ليفي كوهيــن»، وهو الاسم الذي تردد فــي رائعة طاهر أبو فاشــا[١٠٢] الإذاعيــة «ألف ليلة وليلة»؛ حيث تجد امرأة تدعــى أم الكواهين عرف عنها المكر والدهاء والوقيعة بين البشر.[١٠٣]

- وبغضــ النظر عــن واقعية انتشار اسم كوهين، ومنطقية الاشتقــاق اللغوي له، فإن ثقافة العامــة أسست اختيارها له ربما على مفردات لغوية شائعــة في الثقافة الشعبية المصرية

(١٠١) صالح مرسي، ورأفت الهجان، **كنت جاسوسًا في إسرائيل**، ط. ٦، الأعمال الكاملة (القاهرة: أبوللو، ١٩٩٠): ٣٦٨

(١٠٢) شاعر وزجال مصري.

(١٠٣) مرسي، والهجان، **كنت جاسوسًا في إسرائيل**: ٣٦٩.

كاشتقاقي «كُهْن» و «كَهِّين»، وهي صفات تطلق على الشخص الماكر المراوغ الخبيث، فكأن المنتج الشعبي اختاره اسمًا محملاً لدى العامة بمعانٍ محددة، فيأتي الاسم لكي يكون تعبيرًا عنها وتجسيدًا لها. (١٠٤)

هذا فضلاً عن عدد كبير من الأسماء التي تركز عليها الأعمال الدرامية منها موشى، أليعازر، يوسف، داوود، سمحون، سارة، ليلي، راشيل، ليليان.

- تركز الدراما على مجموعة من الخصائص الجسدية أو حتى في الملبس والمظهر التي تميز الإسرائيلي عن غيره من بني البشر، فالذكر الإسرائيلي غالبًا أصلع أو قليل الشعر له لحية تلتقي مع الشارب، أنفه بارز، أذنه طويلة وكبيرة، وهو رغم ميل قامته إلى القصر، فإن جسده يميل إلى الامتلاء والبدانة، وهذا فضلاً عن الطاقية التقليدية التي يستخدمها اليهودي التقليدي المحافظ.

- أما الأنثى فهي ممشوقة القوام، طويلة الشعر، متسعة العينين، دقيقة القسمات والملامح، فالأنثى الإسرائيلية تتجسد في صورة الجميلة الممشوقة.(١٠٥)

- أما فيما يتعلق بطريقة التخاطب كما جسدتها الدراما، فإن الإسرائيلي عند تحدثه مع آخرين يحرص على خفض صوته، وتوظيف أنفه باعتبارها أحد مخارج الكلام، وهي صورة كاريكاتورية تجسدت في الثقافة المصرية. أيضًا الإسرائيلي أثناء تخاطبه يميل إلى أن يحرك رأسه ورقبته عموديًّا إلى أسفل، كمن يحاول إخفاءها بين كتفيه، وأحيانا يثني ركبته، فيزداد قصرًا، أما الأنثى الإسرائيلية وإن اشتركت مع الذكر في

(١٠٤) المرجع السابق: ١٤٠.
(١٠٥) سمير فريد، **صورة المرأة في السينما العربية**، سلسلة دراسات عن المرأة العربية في التنمية، العدد ١٠ (بغداد: الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، ١٩٨٥): ١٠٤-١٠٥.

الصوت المنخفض، فإنها تجيد الحديث والاستماع إلى الآخرين، ولذلك فهي كثيرًا ما تستخدم فـي أعمال التخابر من قبل الإسرائيليين لتأثيرها القوي في الآخرين، وبخاصة الذكور.(١٠٦)

- تركـز الدراما علـى مجموعة من الصفـات السلوكية التي تكمن وراءهـا قيم مرفوضة فـي الشخصية الإسرائيلية؛ منها أن الإسرائيلي بخيـل مُقَتِّر إلى درجة الشح، فهو مادي يعشق المـال، أناني، مرابٍ، إنسان يتجاوز العواطف والمشاعـر الإنسانية؛ بسبب أن حياتـه غير مستقـرة. كما أنه رشيد في سلوكه الاقتصـادي، ربما يرجع ذلك لإحساس تاريخـي بعدم الأمان، بالإضافة إلـى التوتر والشك في الآخرين بما في ذلك المقربين. كمـا أنهم شخصيات يتوزع انتماؤهم بين التجمع الإسرائيلي والرغبة في الحل الفردي للمشكلات، وهو ما يفسر دخول بعضهم في شبكة التجسس.

- إن العربي قد أقام تطابقًا بين الديني والسياسي في الأعمال الدرامية لتصور الإسرائيلي؛ نتيجة لما ورد في النص الديني من تصورات حول اليهود، والذي أسهم في استحضاره وتدعيمـه استدعـاء الإسرائيليـين المعاصريـن لنصهم الدينـي وربطهم إيـاه بالحاضر السياسـي وهو استدعاء دعمته وعمقته ممارسـات الإسرائيليين اليومية مع العرب. كما أسهم في إعادة إنتاج هذا التطابق نشاط المثقف المحافظ ذي المرجعية الدينية.(١٠٧)

- وحينما نتكلم عن دور السينما العربية، وبالتحديد السينما المصرية في الصراع العربي الإسرائيلي نجد أنها لم تكن سلاحًا فعالاً في الصراع العربي الإسرائيلي، بل إن الدارس للأفـلام التي عالجت قضية الصراع العربـي الإسرائيلي يدرك أن هذه الأفلام كانت في

(١٠٦) عبد المعطي، «صورة الإسرائيلي لدى المصري بين ثقافة العامة والدراما التليفزيونية»: ٣٦٥-٣٦٦.
(١٠٧) المرجع السابق: ٣٥٩- ٣٦٢.

أغلــب الأحيان سلاحًا فاســدًا حقيقيًّا، ارتد إلى صدورنا بدلاً مــن أن يتوجه إلى صدر الخصــم[١٠٨]. وللأسف لم تقدم هــذه الأفلام صورة للصراع العربــي الإسرائيلي، بل اختزلــت الصراع في صورة امرأة قاهرة للرجال في إسرائيــل، بالإضافة إلى فيلم «فتاة من إسرائيل»، هــذا الفيلم الحافل بأخطاء درامية وسياسية تخدم إسرائيل. وأخيرًا، فيلم «ولاد العــم» الذي يعد فيلــم مشوشًا؛ لأنه لم يتناول قضية الصــراع العربي الإسرائيلي بوضوح، فهو الفيلم الــذي جسد الموساد الإسرائيلي على أنه أقوى جهاز للمخابرات في العالم وصور إسرائيل على أنها من أقوى دول العالم التي لا يمكن قهرها.

رابعًا: التعليم والحاجز النفسي

- إن التعليــم هو أحد المحاور الرئيسية في تكوين الإنسان، وهو الذي يعمل على صياغة العقــول والنفوس ويزرع القيم والأفكار والمبادئ التي تتكــون منها شخصية الإنسان فــي المستقبل. وكما يقال: «التعلم في الصغــر كالنقش في الحجر». من هنا يدرك كل غــازٍ أو مستعمــر يسعى إلى تغيير عقــول الأشخاص أنه لن يتمكن من هــذا الأمر بقوة الســلاح فقــط، وإنما بتعديل مناهج التدريــس في البلد الذي استعمــر، وبهذه الطريقة يضمــن المستعمر تبعية جيل كامل لفترة طويلة من الزمن، إن التعليم يشارك في الإعداد والتجهيــز لكل مرحلة ويدخل فــي الحسابــات الإستراتيجية لواضــع السياسية، لكنه

(١٠٨) ومن أمثلة الأفلام المصرية التي تناولت قضية الصراع العربي الإسرائيلي في الثمانينيات؛ مثل "فخ الجواسيس" للمخرج أشرف فهمي، "بئر الخيانة" للمخرج علي عبد الخالق، "إعدام ميت" للمخرج علي عبد الخالق، "أصحاب ولا بيزنس" للمخرج علي إدريس، "يوم الكرامة" للمخرج علي عبد الخالق، وغيرها. وفى التسعينيات أفلام نادية الجندي؛ مثل "مهمة في تل أبيب"، "٤٨ ساعة في إسرائيل".

بعـد الانتهاء مـن المعركة أو المرحلة يخرج مـن حساب المشاركة فـي المكسب أو الخسارة.[١٠٩]

- وإذا كان هـذا الصـراع الممتـد لا زال قابلاً للاستمـرار – وبأشكال فيهـا التكرار لما مضـى– أو التجديـد في ضوء ما نرى مـن متغيرات إقليمية ودولية، فـإن التعليم سيظل محتفظًـا بـدوره ومواقعـه. وبالتالي فعملية كسـب مراحل الصراع القادمـة يمكن أن تتوقـف على مدى فهم واستخـدام كلٍّ من طرفيه لدور التعليم فيـه وإعطائه ما يستحق من الأهمية، خصوصًا ونحن الآن في عصر أصبح فيه العلم والقدرة على امتلاكه نظريًّا وتطبيقيًّا القيمة المضافة التي تحسم أي صراع قادم. [١١٠]

يكثر الحديث في الآونة الأخيرة عن تلك الادعاءات التي توجهها الولايات المتحدة الأمريكية للدول العربية والإسلامية متهمة برامجها التعليمية بالإرهاب والفساد، وإنها هي التي تقوم بتخريج جيل من الشباب الإرهابي، لذلك دعت الولايات المتحدة مدفوعة من قبل إسرائيل، تلك الدول إلى السعي لتغيير مناهجها التعليمية والعمل على تنقيتها من الأسباب المؤدية إلى الإرهاب، متناسية بذلك تلك البرامج الإرهابية التي يتلقاها الطفل اليهودي في مدرسته منذ نعومة أظفاره، والتي تجعله يناصب العداء لكل من هو غير يهودي باعتبار أنه «شعب الله المختار». الأمر الذي يدل على أن الهدف من وراء الدعوة إلى القضاء على الإرهاب ليس المقصود من ورائه القضاء على الإرهاب بالفعل، وإنما هذه الدعوة ما هي إلا حلقة من حلقات مخطط الغزو والسيطرة على العالم الذي تسعى إليه إسرائيل.[١١١]

---

(١٠٩) صالح سرية، **تعليم العرب في إسرائيل** (بيروت: مركز الأبحاث م.ت.ف. ١٩٧٥): ٣٤.

(١١٠) عبد اللطيف محمود محمد، «موقع التعليم لدى طرفي الصراع العربي الإسرائيلي في مرحلة المواجهة المسلحة والحشد الأيديولوجي»، **دراسات إستراتيجية**، العدد ٥٢ (٢٠٠١): ٨.

(١١١) خليل السواحري، وسمير سمعان، **التوجهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية** (سوريا: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦): ٢٨.

وعندما طالب قادة إسرائيل الفلسطينيين بتغيير مناهج التعليم في المدارس والجامعات كانوا يقصدون الجوامع أيضًا والخطب التي يرونها أسبابًا تغذي التحريض؛ لكنهم بدأوا بتلك المطالبة، وكانوا يمهدون لمرحلة قادمة يطالب فيها العرب كلهم بتدجين نصوصهم الدينية والدنيوية؛ بحيث يتحولون إلى كائنات تعيش بالخبز وحده وبالسلام المشروط الذي يجود به المحتل. ولا ندري لماذا يصمت العرب والعالم أمام هذه المطالبة؟ ولم لا يذكر العرب إسرائيل بالمناهج العبرية التي تصنف وفق «الجوييم» «الأغيار» أبسط المعايير الإنسانية والأخلاقية على أنها تربويات عرقية تغذي الكراهية وتعزل اليهودي عن الأميين، كما تسميهم الأدبيات الصهيونية؟(١١٢)

إن قضية تغيير المناهج التعليمية في المنطقة العربية لم تفتر أبدًا منذ معاهدة (كامب ديفيد)، مرورًا باتفاقيات مدريد؛ إلا أن هذه القضية اشتد الإلحاح عليها بعد أن طفت على السطح زمنًا. ازدادت هذه القضية زخمًا، وصعد شأنها بعد أحداث سبتمبر الشهيرة، وذلك من خلال الربط الأمريكي بين المناهج التعليمية المقررة في عدد من الدول العربية وبين ما تسميه الولايات المتحدة إرهابًا.

إن إسرائيل تحاول أن تفقد العرب ذاكرتهم من خلال التلاعب بالتاريخ، وحتى يشعر العرب أن التاريخ قد بدأ في الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ واكتمل في الخامس من يونية ١٩٦٧، فالخائفون من المستقبل باعتباره الكمين الذي ينصبه التاريخ لهم هم أعداء الماضي. ولو كان الأمر بيد الإسرائيليين وحكومتهم لجعل التاريخ يبدأ مع الدولة العبرية، ويحذف عدة قرون عاشتها البشرية وهي تدافع عن منظومة قيم باتت الآن في مهب العواصف. (١١٣)

(١١٢) خيري منصور، «من تغيير المناهج إلى تدجين العقول»، **صحيفة الوطن القطرية**، http://www.palestine-info.com/arabic/terror/sijil/2004/tgeey.htm

(١١٣) عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل، «مناهجنا تغيير أم تغريب»، **الإسلام اليوم** http://www.saaid.net/manahej/9.htm ،

إن إصرار الولايات المتحدة الأميركية على تغيير مناهج التعليم، وإنفاقها مئات الملايين من الدولارات من أجل إنجاح مهمتها، إنما يدل على أهمية هذا الفعل من أجل ضمان نشأة جيل عربي مسلم في الهوية وأمريكي في الجوهر، يسكن في مصر أو في لبنان أو في أي بلد عربي ولكنه يملك عادات وقيم المجتمع الأمريكي الذي يؤمن بوجود إسرائيل، ويتطلع إلى قبول الآخر، ويتطلع إلى التعايش السلمي معه.

لقد كانت الولايات المتحدة وإسرائيل، تطالبان العرب والمسلمين بإصلاح الخطاب الديني والثقافي عن طريق تغيير المناهج التعليمية، ومناهج تدريس العلوم الدينية. وبسبب هذه المطالبة أعرض كثيرون عن الخوض في المسألة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بحسبان ذلك مياهًا تصب في طاحونة الغزاة الأمريكيين. لكن سرعان ما بدأت تتغير هذه النظرة بعقد مؤتمرات وكتابة مقالات حول تجديد الخطاب الديني بمعنيين: من ناحية الخروج على التقليد وعلى الأصولية، ومن ناحية الشكل بوجوب التصدي للمشكلات المعاصرة من جانب رجال الدين، بأساليب ملائمة في اجتذاب الجمهور. على أن اللافت في دعوات تجديد الخطاب الديني، اعتبار الفكر الديني السائد عقبة أو عائقًا في طريق التجديد والتغيير السياسي.(١١٤)

على الجانب الآخر نجد أن التعليم الصهيوني يواصل تماديه بتربية طلابه على منهج العنف الذي ينطلق من أصول صهيونية واضحة المعالم تعبر عنها جميع مراحل التعليم، من دعم الإحساس بالاضطهاد، وإلغاء الآخر، وغرس الكراهية والحقد، والتأكيد على أهمية العنف والإرهاب، وتكريس العنصرية، والتفوق، وتشويه العرب والإسلام والمسيحيين.(١١٥)

(١١٤) رضوان السيد، «تغيير الواقع وتجديد الخطاب»، **جريدة المستقبل** (الثلاثاء ٧ أكتوبر ٢٠٠٣)، http://www.bintjbeil.com/articles/2003/ar/1007_assayed.html

(١١٥) هارون هاشم رشيد، **الصهيونية في الكتب المدرسية الإسرائيلية** (المملكة العربية السعودية: وزارة التربية والتعليم، ١٩٩٧).

ولعل خير تعبير عن أهمية دور المؤسسات في إسرائيل قول العالم الفرنسي جوزيف كلاتزمان؛ حيث يقول: «**قد تعد الدبابات عامل أمن للمستقبل القريب، ولكن بالنسبة للمستقبل الأبعد فإن المدرسة والجامعة تمثلان عاملين للأمن أكثر أهمية بكثير من ذلك**». (١١٦)

فنجد أن مناهج التعليم الصهيونية تستمد أصولها من الشواهد التوراتية القائمة على نظرية الإبادة لدى اليهود، والتي تحكي موقع العبادات. أما قتل الأطفال والتنكيل بهم فقد حفلت به الكتب والمناهج الصهيونية، وحملت في الأغلب أكثر النزعات إجرامية. وقد ازداد العنف الصهيوني في مناهجهم باستخدام التطور التكنولوجي والقتل لكل ما هو غير يهودي. كما أجمعت المناهج الصهيونية على استخدام العنف والتدمير والعدوان على العربي من خلال:

١) اعتبار اليهودي أساس التطور في فلسطين، فبدونه لن يحدث لها تطور وتقدم. على الجانب الآخر فإن العربي متخلف فهو رمز للأمة المريضة التي شاخت، فهو لا يقدر على فعل شيء.(١١٧)

٢) اعتبار فلسطين والجولان أرضًا يهودية والأقطار المجاورة غريبة عنها تاريخيًّا وعقديًّا.

٣) اعتبار العرب محتلين للأرض، والفتح العربي ما هو إلا غزو تاريخي.(١١٨)

٤) وصف العرب بأنهم بدو رحل جاءوا إلى فلسطين على أنهم غزاة، وقد هدموا حضارة اليهود وعمرانهم.(١١٩)

---

(١١٦) جوزيف كلاتزمان هو من العلماء الفرنسيين اليهود في كتاب له عن (الدروس المستفادة من التجربة الإسرائيلية)، نقلاً عن: قدري حفني، **تجسيد الوهم: دراسة سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية** (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ١٩٧١): ١٥١.

(١١٧) صفا محمود عبد العال، **تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥): ٨٠–٨٣.

(١١٨) أمين هويدي، **كيف يفكر زعماء الصهيونية؟** (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢): ١٦٨.

(١١٩) عبد العال، **تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية**: ١٥١.

٥) التركيز على تعرض اليهود للظلم بشكل دائم.

٦) مساعدة الإنجليز لليهود ليست سوى رد جميل لليهود مقابل خدمات اليهود للإنجليز.

٧) التركيز في كل موقع على الفناء والكارثة التي تعرض لها اليهود من قبل الألمان «الهولوكوست».

٨) وصف العرب أصحاب الأرض بالمعتدين وقطاع الطرق.

٩) ردة فعل اليهود ضد الفناء الأوروبي والإرهاب الغربي كانت بإقامة المزيد من المستوطنات.

١٠) إظهار قدرة الجندي الصهيوني أمام الجندي العربي والبطولات التي قدمها اليهود مقابل العرب.

١١) الادعاء أن الفلسطينيين هم الذين هربوا من ديارهم ولم يُطردوا منها.

١٢) اتهام العرب بالعدوان على إسرائيل.

١٣) الدعوة الدائمة لإقامة المستوطنات ردًّا على العرب ودفاعًا عن أرض إسرائيل.

١٤) تصوير الاحتلال الإسرائيلي بأنه نعمة للعرب وليس نقمة من خلال التقدم والعلم الذي حصل مع مجيء اليهود في فلسطين.[١٢٠]

وبذلك نجد أن التعليم الصهيوني بمراحله المختلفة يهدف إلى ضرورة تفعيل مفاهيم القوة، والعنف والعداوة للآخرين حتى يمكن ضمان استمرارية الدولة الصهيونية.

(١٢٠) المرجع السابق: ٩٣.

فرواد التعليم الصهيوني يعلمون أطفالهم العنف والعدوان وكراهية العرب وتشويه صورة المسلمين، ويطالبون بتربية أطفال العرب على حب الصهاينة وغرس بذور السلام وقبول الآخر. كما تكرس سياسة التعليم سمو العنصر اليهودي الصهيوني على غيره من الشعوب.

إن التعليم بوصفه المعد للبشر باعتبارهم الثروة والمكون لنسق العقيدة، التي تقود الممارسة وتتحكم في مفهوم المجتمع عن الذات والآخر وتبني الإرادة لا يمكن أن يترك في الخواء الفكري الذي يعتري مرحلة الصراع الآن، ذلك أن الآخر يحسب بدقة ويستخدم أدواته وفق رؤية واضحة محددة، ويفاجئنا بما لم نحسب له حسابًا. لذلك فالأمر يحتاج منا بناء تصور جديد لدور التعليم في هذا الصراع وإعادة تقويم أدائنا فيه. ولعل تحسين فهمنا لدور التعليم في الصراع يصبح مدخلاً لتحسين أدائنا فيه، وبالتالي تحسين مواقعنا القتالية أو التفاوضية حسبما تحدده مصالحنا وإرادتنا. (١٢١)

حاول المفكر الإسرائيلي «دانيال بار تل» البحث عن الأسباب التي تقف وراء العمل المستمر على تشويه صورة العرب في المناهج الدراسية الحكومية في إسرائيل؛ فوجد أن ذلك يعود إلى محاولة البحث المستمر عن بنية نفسية تحتية، تساعد المجتمع الإسرائيلي على الصمود في وجه العرب، العدو الرئيسي حاليًّا. وأكد أن من بين الأسس التي تقوم عليها المناهج الدراسية في إسرائيل، التركيز على عقيدة الصراع مع العرب، وإبراز أهمية الجيش الإسرائيلي لضمان الأمن لإسرائيل، وهذا أدى إلى تضاؤل الاهتمام بثقافة السلام، أو عرضها في صورة غامضة ومبهمة. وبعد أن فحص عدد مائة وسبعة كتب من الكتب التي تدرس في مدارس ومعاهد إسرائيل الرسمية والمعتمدة من وزارة التعليم، وجد أن هناك إهمالاً في الإشارة إلى مفاهيم السلام وتضخيم في الحديث عن اليهود باعتبارهم ضحايا لهجمات

(١٢١) محمد، "موقع التعليم لدى طرفي الصراع العربي الإسرائيلي": ٩.

الآخرين مع عدم الاعتراف بشرعية مواقف وتصرفات العرب؛ حيث يجرى تشويه صورتهم وإظهارهم في صورة قوم من المشاغبين والمتخلفين حضاريًّا وثقافيًّا، إلى جانب قذارتهم الجسمانية. وختم «بار تل» دراسته بقوله بأنه «لم يُسجَّل حدوث أي تغير في المناهج الدراسية الإسرائيلية الرسمية في تناولها لصورة العرب، رغم حلول السلام؛ فالكتب الدراسية لا زالت تقدم العرب بصورة مشوهة، وتتجاهل المعاناة التي لحقت بأبناء الشعب الفلسطيني».[١٢٢]

خامسًا: الصورة الإعلامية والحاجز النفسي

لعل الأمر الحقيقي الذي حدث في السنوات الأخيرة من القرن الماضي في المجالات الإعلامية هو الانتقال من منطقة العرض إلى منطقة الفرض. ففي السابق كانت وسائل الإعلام تعرض منتجها ويمكنك الاختيار، ولكن الذي حدث بعد التطورات التقنية الهائلة التي حصلت في شتى المجالات قد منح الإعلام القدرة على ما يريد، مما أثر تمامًا في الاتجاهات الثقافية بشكل خاص من خلال اللجوء إلى ثقافة الكلمة. فخطاب الصورة يحتوي على جانبين متعارضين ومتكاملين؛ هما الجانب الدلالي أي «ما يقال» والجانب الجمالي أي «ما يتضمنه الخطاب». ومن هنا فإن احتلال الصورة مكانة في التواصل البشري أهم من الكلمة كان أحد نتائج تقدم الاتصال عن طريق الفضاء واحتلال الأقمار الصناعية المكانة الأولى قبل الأوراق في إحداث هذا التواصل. وبفضل هذا التطور ومن خلال القنوات وشبكات الاتصال أصبحت الصورة المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد.[١٢٣]

(١٢٢) دانيال بار تل، **صحيفة هآرتس الإسرائيلية** (١٦ فبراير ١٩٩٩).
(١٢٣) جمانة شومان، **الإعلام وثقافة الصورة في الاتصال والمعلومات** (بيروت: كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٥): ١٩١.

ففي الماضي كان المتلقي يذهب إلى الصورة بحثًا عن المعرفة. لكن يبدو أن الأمر قد اختلف في العصر الحالي. فقد أصبحت الصورة تأتي إليه دون أن يستطيع مقاومة حضورها، ولهذا فهناك علاقة نفسية بين الصورة وموضوعها. ولو نظرنا إلى إمكان وجود نقلة مضادة في هذه العلاقة فهذا يعود إلى الآليات النفسية التي تؤذي الأعين، فهناك حالة من السلبية لدى الجمهور؛ حيث يؤدي الترويض إلى ذهول العقول بالصور وقبولها بما تحمله من مضامين وإملاءات. وهنا يكمن الظفر الكبير الذي حققته تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات في أنها تتدخل بقوة في إنتاج وعي المتلقي من خلال ثقافة الصورة، خاصة بنسختها الرقمية دون أن يطلب أو يدرى أن الصورة تعتدي علينا فعلاً، فهي تقتحم إحساسنا الوجداني وتتدخل في تكويننا العقلي، بل إنها تتحكم في قراراتنا الاقتصادية. وهي مثلما تسلبنا راحتنا النفسية؛ فإنها بالغة التأثير تمامًا، مثلما تدير ردود فعلنا السياسية والاجتماعية، وتؤثر في توجهاتنا الفكرية والثقافية.(١٢٤)

ولا شك أن وسائل الإعلام تلعب أدوارًا محورية في الدعاية الحربية، وربما تشويه الحقائق في جميع الحروب سواء الحروب الكاملة أو المحدودة. ولكن في عصر وسائل الإعلام التي تنقل ما يحدث في الحروب على مدار الأربع والعشرين ساعة أصبح الأمر أكثر تعقيدًا، وأصبح ما تنشره الصحف والمجلات وما تبثه القنوات التليفزيونية من صور عن الحروب، ليس فقط وسيلة من وسائل الدعاية، ولكن أيضًا أحد أهم مصادر صنع القرار السياسي والعسكري المتصل بالحرب، وأحد أهم العناصر التي تساهم في تشكيل اتجاهات الرأي العام والمجتمع الدولي نحو الحرب والأطراف المشاركة فيها.(١٢٥)

(١٢٤) ماري وين، **الأطفال والإدمان التليفزيوني**، عالم المعرفة ٢٤٧ (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٢): ٧٥.
(١٢٥) أحمد أبو هديه، مترجم، ٣٣ يوم حرب على لبنان (بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٧): ١١.

ولابد أن نعترف أن الإعلام العربي فشل في القيام بدوره في خدمة القضايا العربية، وخصوصًا القضية الفلسطينية في مواجهة الإعلام الصهيوني. ومن الواضح أن الخلل في الإعلام العربي المتجه نحو مخاطبة الرأي العام المحلي والخارجي، فهو يعانى من خلل على عدة مستويات؛ على مستوى الهدف والرسالة، وعلى مستوى الإستراتيجية، وعلى مستوى آلية التطبيق، وعلى مستوى الاستعداد لدفع الاستحقاقات. فهذا الانقسام والتشتت والنفاق السياسي الذي كان يحكم معظم الأنظمة العربية تجاه ما يجري في فلسطين، خلق وجود عائق رئيسي أدى إلى فشل الفضائيات في تحويل صورة المقاومة والمعاناة إلى ثقافة تحمل معنى ودلالة تغير من الصورة السلبية المنطبعة في أذهان الناس في الخارج تجاه المقاومة والانتفاضة الفلسطينية. فعندما لا يكون العرب متفقين على موقف واحد من المقاومة ومن العمليات الاستشهادية، فكيف يمكن لفضائياتهم استقطاب الرأي العام حول المقاومة والانتفاضة؟[١٢٦]

هناك بعد آخر يتعلق بالإعلاميين أنفسهم من صحفيين ومحللين ومراسلين، وهو سيطرة فكرة السبق الصحفي على عملهم مع تجاهل خطورة ذلك أحيانًا على القضايا الوطنية والقومية. فليس كل سبق صحفي بالمفهوم المهني يحقق بالضرورة مصلحة وطنية. وليس معنى هذا هو التقليل من قيمة الفضائيات ومراسليها والمخاطر التي يتعرضون لها لإيصال حقيقة ما يجري في فلسطين للمشاهد العربي. ولكن المشكلة تكمن في القائمين على شئون الإعلام والمتحكمين في الفضائيات، وفي الواقع الذي يحتله الإعلام وخصوصًا الفضائيات الموجهة رسميًّا، وفي الهدف الحقيقي لانتشار الفضائيات الرسمية العربية. وتكمن الخطورة أيضًا في الإعلام والفضائيات التي كانت امتدادًا للسياسة الرسمية العربية التي كانت متبعة من قبل الأنظمة الدكتاتورية في الوطن العربي.

(١٢٦) إبراهيم أبراش، **المقاومة الفلسطينية بين الواقع والصورة التي تنقلها الفضائيات العربية، في ثقافة الصورة في الإعلام والاتصال** (جامعة فيلادلفيا، مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر، كلية الآداب والفنون، ٢٠٠٨): ١٦٨-١٦٩.

ولا تكمن الخطورة في كون الفضائيات العربية مقصرّة في نقل عدالة القضية الفلسطينية إلى العالم الخارجي وعجز مئات القنوات الفضائية العربية عن مواجهة الدعاية الصهيونية في الخارج، بل أيضًا في تعاملها مع القضية الفلسطينية وخصوصًا الأحداث الأخيرة بنوع من الإثارة، والبحث عن السبق الصحفي دون الاهتمام بالأبعاد المصيرية والإستراتيجية للحدث، وضرورة الحفاظ على المصداقية، مثلما حدث عند التركيز على حملات جمع التبرعات أو الصدقات للفلسطينيين. وكأن مشكلة الشعب الفلسطيني هي الغذاء وأنهم ما قاموا بانتفاضتهم إلا لتحسين مستواهم المعيشي، أيضًا تضخيم قدرات الشعب الفلسطيني، وتهويل تأثير العمليات الاستشهادية، حتى خلقت الفضائيات وهمًا عند الجماهير العربية والإسلامية أن الشعب الفلسطيني قادر وحده على هزيمة إسرائيل والقضاء عليها، في مقابل ذلك متابعة وتضخيم كل خلاف فلسطيني داخلي ومتابعة كل مواجهة بين الفلسطينيين مباشرة، والتسابق على انتزاع أحاديث من أطراف المواجهة بشكل استفزازي وتحريضي.(١٢٧)

على الجانب الآخر تعي إسرائيل من جانبها أهمية الإعلام وتسعى دائمًا إلى الاستفادة من بيوت الخبرة الإعلامية المشهورة لتحسين صورتها، وقد جاءت توصيات تلك البيوت الإعلامية بإنشاء قنوات تليفزيونية وإذاعية متخصصة هدفها العرب والمسلمون عمومًا، وهذا في سبيل تحقيق نصر وإنجاز إعلامي ليسجل لبني صهيون.

ولقد اهتمت الدعاية الإسرائيلية بعنصر التخطيط باعتباره أحد العناصر الأساسية لتحقيق أهداف النشاط الدعائي والإعلامي، ووضعت على رأسه أحد علماء النفس السياسي وتتبع فلسفة التخطيط الدعائي الإسرائيلي من كونه أحد أركان السياسة الخارجية الصهيونية، وتستند على عدة مرتكزات؛ منها ترويج لفكرة الوجود الإسرائيلي باعتباره حقيقة تاريخية،

(١٢٧) المرجع السابق: ١٧٠-١٧١.

وفقًا لنبوءة دينية وتأكيد أن إسرائيل حقيقة حضارية مرتبطة بالغرب، وهي تمثل النموذج المثالي مقابل أن العالم العربي يمثل مظاهر التخلف الحضاري والثقافي.[١٢٨]

لقد تمكن الإعلام الصهيوني ولفترة طويلة من الزمن من لعب دور أساسي في عملية حشد الرأي العام، وخصوصًا في الغرب، خلف المخططات الصهيونية، عن طريق تزييف الحقائق بالادعاء أن إسرائيل تشكل واحة للديمقراطية في المنطقة، ولذلك فإن ضمان تفوقها مسئولية غربية؛ لأنها هي القادرة على الدفاع عن المصالح الغربية.[١٢٩]

إن المتابع للتوجه الإسرائيلي في سيناريو الصراع العربي الإسرائيلي، يجد أنه قد يتمثل أمامه أحدث نماذج الحرب النفسية المستهدفة التي تمارسها إسرائيل اعتمادًا على الدعاية الصهيونية الدولية النافذة. ويمكن تكثيف هذا التوجه في:

١) الدعاية المضادة في تقديم صورة سلبية عن العرب؛ منها:

- أن العربي مغامر وجبان، يتسم بالجشع، ذو عيون زائغة، إرهابي بربري، لا قيمة لحياة الإنسان وكرامته لديه، أن العربي ضعيف، ولا يستحق ما يملك[١٣٠]، هذا فضلاً عن أن العرب متخلفون، تدفعهم دوافع الجنس والقتل، فقراء جهلة ولصوص. [١٣١]

---

(١٢٨) حمدي حسن، "الإعلان الدولي واقتصاديات وسائل الإعلام، دراسة في تأثير العائدات العالمية الدولية في سياسات وسائل الإعلام"، **مجلة البحوث الإعلامية**، جامعة الأزهر (يناير ١٩٩٥): ٧٦.

(١٢٩) وهذا ما كان هرتزل قد أكده عندما قال: "إن الدولة اليهودية ستكون حائطًا يحمي أوروبا في آسيا، وسوف يكون حصنًا منيعًا للحضارة في وجه الهمجية". ويقول حاييم وايزمان أول رئيس للكيان الصهيوني: "إن القضية الصهيونية هي قتال الحضارة ضد الصحراء، وكفاح التقدم والفاعلية والصحة والتعليم ضد الجمود الفكري". لمزيد من المعلومات:
حسين قبلاوي، "الإعلام في الإستراتيجية الصهيونية، صحيفة البعث السورية ٢٠٠٣/٣/٨"، المركز الفلسطيني للاعلام، http://www.palestine-info.info/arabic/terror/alfikr/elame.htm

(١٣٠) عبد القادر طاش، **صورة الإسلام في الاتصال الغربي** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٣): ٣٤.

(١٣١) حنان يوسف، **المعالجة الإخبارية للقضايا العربية في شبكتي** CNN ،Euronews (رسالة دكتوراه، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠١): ١٠٦.

- على الجانب الآخر تحاول الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية رسم صورة جديدة لليهودي، فأصبح «مسالمًا، متحضرًا، أمينًا، ذكيًّا، صديقًا، منتجًا، مقاتلاً».

٢) من الموضوعات الأساسية التي تطرحها الدعاية الصهيونية قضية البقاء، فالدولة الصهيونية ليست دولة معتدية، وإنما هي تحاول الحفاظ على بقائها وأمنها فحسب، وتختلف طبيعة هذا البقاء من حقبة لأخرى وحسب موازين القوى.

٣) تركز الدعاية الصهيونية على الحقوق التاريخية المطلقة للمستوطنين الصهاينة، مع الإغفال المتعمد لحقوق السكان العرب أصحاب الأرض الأصليين.

٤) طورت الدعاية الصهيونية رؤية مزدوجة للمستوطن الصهيوني. فبقاؤه مهدد دائمًا من قِبَل العرب، ولكنه في الوقت ذاته قوي للغاية إلى درجة أنه لا يمكن أن يهدده أحد، فهو قادر على البقاء وعلى سحق أعدائه وضربهم في عقر دارهم.(١٣٢)

٥) تؤكد الدعاية الصهيونية على أن إسرائيل واحة للديمقراطية الغربية في وسط عالم عربي متقلب، وأن الدول العربية تريد افتراس يهود إسرائيل وذبحهم.

٦) تدخل الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية الموجهة للعرب في إطار الحرب النفسية، والتي تهدف إلى تحطيم معنويات العرب، بل تحطيم الشخصية القومية العربية، وغرس مفاهيم مثل جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يقهر والسلام العبري.(١٣٣)

٧) ركزت الدعاية الصهيونية على قضية العداء الأزلي لليهود وعلى الإبادة النازية لليهود والستة ملايين يهودي، وهي تهدف من هذا إلى ابتزاز العالم الغربي وتبرير عملية

(١٣٢) هيثم محمد أبو الغزلان، "إسرائيل تخسر من جديد "صورة الضحية"، **فلسطين اليوم**، http://paltoday.ps/ar/post/85371/
(١٣٣) يوسف، "صورة إسرائيل تغطيات الصراع العربي الإسرائيلي": ١٠٧٩.

اقتلاع الفلسطينيين من بلادهم. كما أن هذه القضية تقوي التضامن اليهودي في الوقت نفسه.(١٣٤)

٨) توجهت الدعاية الصهيونية إلى الجماعات اليهودية مبينةً لها أن وجودها في عالم الأغيار يهددها ويهدد هويتها بالخطر، وركزت الدعاية الصهيونية على دعوة اليهود للخروج من الجيتو والهجرة إلى «إسرائيل» للحفاظ على خصوصيتهم وهويتهم اليهودية. وقد تراجع هذا الموضوع في الآونة الأخيرة.

٩) إن الدعاية الإسرائيلية تركز على استخدام مصطلح «الصراع العربي الإسرائيلي» بدلاً من مصطلح «القضية الفلسطينية» لإيهام العالم أن ثمة طرفين متصارعين هما «العرب والإسرائيليون»، لكلٍّ منهما حق في فلسطين، وأن صراعهما يدور حول هذا الحق، في حين تجد مصطلح «القضية الفلسطينية» يشير بوضوح إلى أن ثمة قضية واحدة لصاحب حق واحد، وهو الشعب الفلسطيني ويضع إسرائيل في موضع من لا يملك حقًّا في الأساس؛ إذ إن القضية بكاملها هي قضية شعب اغتصب وطنه، وشرد من أرضه، وانتهكت حقوقه، واستبيحت مقدساته. أما مصطلح «الصراع العربي الإسرائيلي» والذي يلح الإعلام الإسرائيلي على ترديده فإنه يعتبر الصراع بين الطرفين يدور في المقام الأول حول تسوية الحدود، وليس حق الوجود، واللافت للنظر أن إسرائيل من خلال إعلامها تصر على استخدام مصطلحات «أرض إسرائيل» بدلاً من اسم

(١٣٤) أمير العمري، "السينما الصهيونية: أشكالها واتجاهاتها"، في **إسرائيل من الداخل خريطة الواقع وسيناريوهات المستقبل** (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٣): ١١٦٩-١١٧٠.

«فلسطيـن»؛ لتوحي للعالم أن فلسطين ليست أرضًا فلسطينية، بل هي أرض إسرائيلية، وأنها ملك لليهود، وليس للفلسطينيين حق فيها.(١٣٥)

١٠) العمل على تشويه صورة المقاوم الفلسطيني أمام العالم، ضمن مسلسل تشويه الصورة العربيـة خارجيًّا، اعتمادًا علـى النفوذ الصهيونـي العميق داخل المؤسسـات الغربية، وقصور إعلامي واضح للتعرض إلى منطقة الآخر.

فيسعى الإعـلام الصهيوني إلى تغيير مفاهيم تسود العالم أجمع، وإنكار لحقوق يعترف بها الجميع، وهو حق الشعوب في مقاومة الاستعمار والاحتلال بكل الطرق، حتى نيل الاستقلال وهو حق قديم منذ بدء الدولة السياسية في العالم، وتكوين الإمبراطوريات، وحق المقاومة والكفاح ضد المحتل الغاصب، بالإضافة إلى تعمد الإعلام الإسرائيلي القيام بالخلط المفاهيمي والعملي بين الإرهاب والمقاومة، بين ما هو مشروع وما هو غير مشروع والذي سبقه الخلط الفعلي بين ما هو مدني وما هو غير ذلك، وبين ما هو مبرر وما هو غير مبرر، بهدف التدليل على عمق الأبعاد التي أسس الإسرائيليون عليها نظريتهم في الخلط المتعمد بين المفاهيم التي خدمت رؤيتهم الإستراتيجية في تمييع هذه المفاهيم وجعلها دون أية ضوابط.(١٣٦)

١١) تعتمـد الدعاية الصهيونية علـى شبكة واسعة من الدوريات الصهيونيـة في أنحاء العالم كافة. ويرجع نجاح الدعاية الصهيونية إلى عدة عناصر:

أ) تعدُّد المنظمات الدعائية وتنوعها وضخامة عددها واعتمادها التخطيط العلمي.

(١٣٥)عادل دندراوي، "الدروس المستفادة من قضية ديزني والقدس، القاهرة، تيارات عربية"، **جريدة الأهرام ٢**(أكتوبر ١٩٩٩): ٨.
(١٣٦)دان ياهف، **طهارة السلاح، أخلاق وأسطورة وواقع**، ترجمة جوني منصور (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، يوليو ٢٠٠٤):٧٣.

ب) تقوم الدعاية الصهيونية بتوظيف أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب فهم يشكلون جزءًا عضويًّا داخل الجسد الغربي على رغم استقلاله النسبي. ومن ثم، تبدو الدعاية الصهيونية كما لو أنها ليست وجهة نظر دولة أجنبية وإنما تعبير عن مصالح أقلية قومية.(١٣٧)

ج) غياب الدعاية العربية الفاعلة وفجاجتها في كثير من الأحيان.

وهكذا يمكننا أن نرى أن الإعلام الصهيوني والإسرائيلي يركز على إسكات التاريخ الفلسطيني، وقطع أية علاقة عربية وفلسطينية به. وهذا ما أورث الفلسطينيين شعورًا بأن تاريخهم اغْتُصِبَ، لقد تم اغتصاب الماضي أيضًا وليس الحاضر فقط، وفي ضوء ذلك التزييف الصهيوني للحقائق، وتشويه التاريخ. وبالتالي فالإعلام الإسرائيلي يتسم بسمتين:

الأولى: أنها دعاية منظمة ومخططة ذات أهداف إستراتيجية واضحة، فهي تسبق الأحداث وتواكبها، ولا تأتي في أعقابها، فينتقي هذا الإعلام لكل حدث ما يلائمه من الأساليب والمضامين، وما يتلاءم والجمهور الذي يخاطبه والمرحلة التاريخية التي يقع فيها.

الثانية: أنها دعاية تركز على تكرار مجموعة من القضايا والدعاوى الباطلة، التي يتم الإلحاح عليها لترسيخها في الأذهان وتثبيتها في ذاكرة الإنسان حتى تصبح وكأنها حقائق يجب التسليم بها، خاصة عندما تطرق مسامعه عبر المذياع، وتتجسد أمامه صور يراها على شاشة التلفاز ويقرؤها بعينيه مكتوبة في صحيفة أو مجلة، تلاحقه في البيت، وفي العمل، وتلح عليه حتى عندما يذهب لينام.

(١٣٧) أحمد عبد الفتاح سلامة، "الدعاية الصهيونية"، **كلمات**،
http://www.kl28.com/books/showbook.php?bID=59&pNo=5#start

ومن هنا لا يجد المرء مفرًّا أمام هذا الحصار الإعلامي إلا الانصياع والاستسلام إزاء الإلحاح المستمر والمتكرر لهذه الدعاية الصهيونية، أو على الأقل التأثر بهذه المغالطات، وهو تأثير سرعان ما يتحول إلى قبول بها، ثم اعتناقها، والتشيع لها، والاستعداد للدفاع عنها. فهذه هي نقطة القوة الأساسية في الدعاية الإسرائيلية من تكرارها لمصطلحات وعبارات زائفة ومقولات باطلة، وإلحاحها، وملاحقتها للرأي العام لترسيخها في عقله ووجدانه.

إن الإعلام الصهيوني المدعم بالآلة الإعلامية الغربية الموجه للعرب يحاول أن يصل بهم إلى الاقتناع بعدم جدوى خيار المقاومة لتحقيق هدف نهائي يتمثل بالمضي بهم إلى قمة اليأس من إمكانية التخلص من الأوضاع التي يفرضها عليهم التفوق الإسرائيلي التقني والعسكري، ومن ثم تحطيم أي أمل في نفوسهم بإمكانية تغيير الواقع أو حتى التفكير في تحسين الظروف الذاتية والموضوعية التي من الممكن أن تحقق لهم استعادة حقوقهم كاملة.(١٣٨)

سادسًا: المنتج الأدبي والحاجز النفسي

إن الأدب لا يزال يلعب دورًا بارزًا في تشكيل الصورة النمطية للآخر في الحاضر، وهو ما يساهم في بناء الحاجز النفسي أو التغلب عليه، فيقدم الأدب لمن يمتلك ناصيته وسيلة فعالة في خلق عالم، وإن كان خيالاً أكثر صدقًا في تفاصيله، بل إنه ملتقى الإبداع الأدبي دونما حاجة لأن يكون الأديب صادقًا في تفاصيله، بل إنه غير مطالب بذلك، إذ ما يقدمه على اعتباره عملاً أدبيًّا، وليس سردًا تاريخيًّا أو وصفًا صحفيًّا للواقع مطلوب من منشئه أو

(١٣٨) قبلاوي، «الإعلام في الإستراتيجية الصهيونية، صحيفة البعث السورية ٢٠٠٣/٣/٨».

مبدعه تحري الدقة والصدق، إضافة إلى أن قبول أو رفض سرده مرهون بذلك. وبسبب هذه الحرية، وهي حرية شبه مطلقة، يهبها عشاق الأدب وقرَّاؤه للمبدعين، يتمكن المبدع أحيانًا «سواء أكان شاعرًا أم روائيًّا أم رسامًا أم موسيقيًّا..... إلخ» من إبداع صورة جديدة للواقع الذي يرغب فيه أو يتخيله، بل إن هذه الحرية تسمح له أيضًا بخلق أو إيجاد عالم ليس له وجود إطلاقًا ليصبح الموجود الوحيد والصورة المعروفة باعتبارها الواقع والحق، أي أن له القدرة على تحقيق ما يعرف باسم «النبوة المحققة لذاتها» [١٣٩] "Self- fulfilling Prophecy"، بمعنى خلق عالم خاص خيالي، ولا يوجد له نظير في الواقع. لكن هذا الخيال يصبح بسبب مقومات أدبية وفنية هو الواقع، ويصبح بسبب الواقع غير معروف، أو بالأصح غير مرغوب في أن يعرف.[١٤٠]

لقد رأى المفكرون والأدباء العرب أن هدف الصهيونية هو سلب أراضي العرب الفلسطينيين وطردهم من وطنهم، وتحولهم من وطنهم، وتحولهم إلى لاجئين وإبادتهم؛ لكي يقيموا دولة يهودية صهيونية على أرض فلسطين العربية. وقد أفرزت مراحل هذه القضية، وهذا الصراع العربي الإسرائيلي منذ انعقاد مؤتمر دمشق في يونية ١٩١٩ والاضطرابات الدموية الأولى بين اليهود والعرب في فلسطين في إبريل ١٩٢٠ وحتى اليوم صورة أدبية ليهودي متآمر ينجح بفضل مؤامراته في استغلال تشتت الوطن العربي؛ لكي يسلبه أرضه ووطنه، ويحوله إلى لاجئ يعيش في الخيام ويعيش على صدقات الأمم المتحدة.

(١٣٩) مصطلح طوره ونحته روبرت ميرثون، يقصد فيه تعريف خاطئ للحالة الاجتماعية أو للمعتقد يخص وضعًا اجتماعيًّا ما، ولأنه معتقد فإن الفرد يعمل انطلاقًا منه، مما يجعله يظهر كما لو كان الحق، مما يقوي بالتالي من ذلك المعتقد.

(١٤٠) أبو بكر أحمد باقادر، "صورة الآخر في رواية "المهدي" لكونيل"، في **صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩): ٨٨٩–٨٩٠.

ومع تطور الأحداث بعد قيام دولة إسرائيل وتوالي نشوب الحروب بين البلدان العربية وإسرائيل منذ حرب ١٩٤٨ وحتى حرب لبنان ١٩٨٢، يمكن القول إن تطورًا ما قد حدث في صورة اليهودي في الأدب العربي؛ حيث بدأت تحل محله صورة اليهودي الإسرائيلي. لقد أخذت صورة اليهودي الإسرائيلي في معظم الإنتاجات الأدبية العربية التي اهتمت بتناولها، صورة الضابط اليهودي القاسي القلب الذي يقوم بمطاردة الفدائيين الفلسطينيين، وينسف المنازل العربية، ويدنس الأرض المقدسة، ويثير الفتن والحروب، أو المجندة التي تنحصر مهمتها في الإغراء الجنسي للجنود العرب للقضاء عليهم بعد ذلك. وهذه الشخصية اليهودية الإسرائيلية تتميز عادة بمجموعة من الصفات اللا إنسانية والشريرة؛ مثل: السادية، والابتزاز، والخداع، والكراهية العمياء لكل ما هو عربي وإسلامي، وعبادة المال، والاندفاع الشهواني لاغتصاب النساء العرب، وقتل الأطفال، والافتقاد إلى السيطرة على النفس، والاستجابة للخيانة في مقابل الإغراء المادي، والدعارة النسائية، والافتقاد للقيم الإنسانية الأخلاقية، وتجسيد الشر الإنساني، ومحاولة إقامة دولة يهودية على أرض مسلوبة من أصحابها واعتباره ممثلاً للإمبريالية الأوربية وتقاليد إبادة الشعوب على النحو الذي سلكه الأمريكيون ضد الهنود الحمر، ويستحق ما حل به على يد النازي. وهو ما قام بدوره في بناء الحاجز النفسي.(١٤١)

وعلى الجانب الآخر فإن الأدب العبري الحديث والأدب الإسرائيلي قد أفرز الآخر في مجال تشويه صورة العربي، الصورة التي تتسم بالعديد من الصفات السيئة واللا إنسانية مثل الجبن، والإيمان بالقدرية، والخداع، والكذب، والغدر، والوحشية، والشهوانية تجاه النساء

(١٤١) رشاد عبد الله الشامي، "رؤية مصرية لصورة اليهودي في أدب إحسان عبد القدوس"، **في صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩): ٨٥٢.

اليهوديات، والسذاجة، والتخلف الفكري، وغيرها من الصفات التي حظيت بالعديد من الدراسات سواءٍ من جانب الباحثين الإسرائيليين أو الباحثين العرب المتخصصين في الأدب العبري الحديث في مصر بصفة خاصة.(١٤٢)

لقد تأثر الأدب الصهيوني بالفكر الصهيوني العنصري القائم على القومية العرقية، والموغل في الاستعلاء المغلف بمفاهيم وتعاليم توراتية وتلمودية.

وقد شرعت القيادة الصهيونية تسخر أحلامها وتجند طاقاتها الفكرية لصياغة أدب جديد يلائم المرحلة القادمة، ويرتكز على جانبين؛ هما: الجانب الاستعلائي العرقي، والجانب الاستيطاني الاستعماري.

فأما **الجانب الأول** فيعتبر الأدباء فيه أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وشعبها ليست له هوية، وأن سكانها بدو متوحشون، احتلوا البلاد وخربوها؛ لذا يجب أن يعودوا إلى الصحراء، وأن يستولي اليهود على الأرض، لذا فالحرب قائمة بين العرب واليهود إلى أن يتم طرد العرب الذين صوروا بأقبح الصور، على أنهم قطاع طرق قذرون، ثيابهم رثة، ويمشون وهم حفاة على الأقدام.

أما **الجانب الثاني** الاستيطاني الاستعماري فينظر فيه إلى العرب والمسلمين على أنهم أشجار بلا جذور يتحتم اقتلاعها عاجلاً أو آجلاً، وأنهم عصابات سرعان ما يهربون من الأرض، وهذا عندهم دليل على عدم الانتماء إلى الأرض التي يعيشون فيها، لذا فإنهم مجرد لصوص يسرقون المياه من أرض الأمة العبرانية.

(١٤٢) المرجع السابق: ٨٥٣.

وهناك العديد من القصص التي أُلفت للأطفال اليهود، هدُفها غسيل أذهان أطفال اليهود، وتصوير المسلم والعربي بأنه قاتل مخادع، وأن الجندي اليهودي مسالم لا يحب الدم والقتل، وإنما دفعه لذلك المسلم المتعطش للدماء والقتل. كما يُصورون المسلم للطفل اليهودي بأنه يمارس تجارة الجنس التي تنتهي عند التهريب والتخريب وخطف الطائرات.[١٤٣]

(١٤٣) **مناهج التعليم الإسرائيلية والصراع العربي الإسرائيلي** (الأردن: مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٠٠٣): ١٩٠.

خلاصة الدراسة

تناولت هذه الدراسة ثلاثة موضوعات رئيسة؛ الموضوع الأول: ركز على الجوانب النفسية في الصراع العربي الإسرائيلي، وتم من خلاله تناول البارانويا في الصراع العربي الإسرائيلي، وأسباب الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي. وركز الموضوع الثاني على الوسائل الإسرائيلية لكسر الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي، وتم رصد من خلاله الوسائل السياسية والاقتصادية والثقافية المتبعة من قبل الكيان الصهيوني في محاولة لكسر الحاجز النفسي بين مصر وإسرائيل. وتناول الموضوع الثالث دور وسائل الثقافة في تشكيل الحاجز النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك من خلال التركيز على دور عدد من وسائل الثقافة؛ منها: التراث الديني سواء الإسلامي أو المسيحي، والتراث الشعبي، والتعليم، والمنتج الفني حول الإسرائيلي، والصورة الإعلامية، والمنتج الأدبي. ومن خلال تناولنا للموضوعات الثلاثة الرئيسية خلصنا إلى عدد من النتائج؛ منها:

- بالرغم من إقامة علاقات مصرية إسرائيلية على المستوى الرسمي فإن السلام القائم تشوبه حالة من الفتور. وقد ساهمت عدد من العوامل في زيادة الحاجز النفسي بين طرفي الصراع منها الآراء المسبقة، والمخاوف، والخبرات السابقة، والحروب مع إسرائيل، وأسطورة التفوق الإسرائيلي، والفكر السياسي الصهيوني وعقلية الحصار، ونظرية الأمن الإسرائيلي، وقضية القدس، وقتل الأسرى المصريين، وتبني ثقافة الحرب، والصورة النمطية للعربي لدى الإسرائيلي، وغيرها من العوامل.

- إن الهدف الأساسي من كسر الحاجز النفسي بين العرب وإسرائيل وجوهره هو إحداث تغيير على الجانب العربي والإسلامي، على أن يبدأ هذا التغيير بالتسليم بوجود إسرائيل كدولة في المنطقة، ويمتد إلى تقييد قدرات العالم العربي العسكرية، وتغيير معتقداته السياسية وإعادة صياغة شبكة علاقاته، إضافة إلى تحقيق مطالب أمنية وإقليمية وصولاً إلى تغيير المواقف تجاه هذا الكيان بصورة جذرية. ومن أجل هذا لجأت إسرائيل إلى عدد من الطرق في محاولة لكسر الحاجز النفسي؛ منها وسائل سياسية، واقتصادية، وأخرى ثقافية. وقد حاولت إسرائيل التركيز على الجانب الثقافي؛ نظرًا لأن وسائل الاختراق الصهيوني الثقافية من أخطر الوسائل للوصول إلى العقل للترويج لفكرة قبول الآخر الإسرائيلي.

- إن ثمة مصادر أثرت في مدخلات إدراك صورة الإسرائيلي بجانب الخبرة المباشرة، مما أدى إلى تكوين الحاجز النفسي في مقدمتها النص الديني، والثقافة الشعبية، والتعليم الرسمي، ووسائل الإعلام المختلفة، والمنتج الفني والأدبي حول الإسرائيلي، وغيرها. ويتأثر استيعاب وتمثل الفرد الاجتماعي بما قدمته هذه المصادر من معلومات.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية